جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

أثر السياق في اصطفاء التعبير باسم اللّه (الواسع) في النظم القرآني

" دراسة بلاغية تحليلية "

الدكتور

أحمد محمود محمد الجبالي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ

العدد الثالث والعشرون

للعام ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م

الجزء الثامن

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٩م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

أثر السياق في اصطفاء التعبير باسم اللّه " الواسع "
في النظم القرآني " دراسة بلاغية تحليلية "

ومن ثم فإن من أجل نعم الله على المرء أن يشغل وقته، ويعمل زناد فكره في تدبر آيات الله، والوقوف على فصاحة ألفاظه، وبلاغة معانيه، وأن كل لفظة بجوار أختها كالعقد الفريد المنتظم على صورة لا نستطيع قبول غيرها إن وضعت حبة موضع أخرى وإن كانت من أجود النفائس وأغلاها، فجواهره لا تضاهى، وعجائبه لا تنقضي، " فالأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيِّز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، مع التناسق العجيب بين العبارة والمدلول "" ".

وتدبر آي الذكر الحكيم لاسيما التي احتوت على اسم من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، تترك في القلب إيمانا مخلصا ، ويقينا صادقا ، لما يحدثه من خوف ووجل ومحبة ومهابة في صفات تحمل معاني الجلال والجمال ، وكلما ازداد العبد معرفة ازداد حياءً وحباً وخشيةً .

دكتور

أحمد محمود محمد الجبالي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات بكفر الشيخ

Email: gebaly556@azhar.edu.eg

Abstract

The effect of context on filtering expression in the name of God "broad" In Quranic Systems "An Analytical Rhetorical Study "

Hence, for the sake of God's grace one has to occupy his time, make the trigger of his thought to contemplate the verses of God, stand up to the eloquence of his words, and eloquence of his meanings, and that every word next to her sister is like a unique, regular contract in a form that we cannot accept other if you put another pill in place even if it is Of the finest and most valuable valuables, its jewels are incomparable, and its wonders are incalculable." .

I think of the wise dhikr, especially that it contained a name of God's most beautiful names and attributes, which leaves a sincere faith in the heart, and an honest certainty, because of the fear, devotion, love and prestige that it brings in the qualities that bear the meanings of majesty and beauty.

Dr.
Ahmed Mahmoud Mohamed al-Jabali
Professor of Rhetoric and Assistant Criticism
at the College of Islamic Studies
And the Arab girls in Kafr El-Sheikh
Email: gebaly556@azhar.edu.eg

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين له الملك، اختصنا بنعمة الإسلام، وشرفنا بمعجزة القرآن وامتن علينا بنعمة الفصاحة والبيان، والصلاة والسلام على سيد كل عالم وتقي، وإمام كل رسول ونبي، سيدنا محمد بن عبد الله ، صلِّ اللهم عليه وعلى آله وصحبه الأخيار. **وبعد**

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ "[1]"، وهو الكتاب الفريد الذي حمل بين طياته سر بقائه، وقد عرف المسلمون الأوائل لهذا الكتاب العظيم مكانته، وقدروه حق قدره، وأنزلوه منزلة عليا من الحفاوة والإجلال والتقديس والتعظيم، ولهذا بذلوا فيه غاية جهدهم في سبيل الحفاظ عليه، وإعلاء شأنه، والدفاع عنه بكل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وسيظل القرآن الكريم المعين الذي لا ينضب، والإمداد الدائم الذي لا ينفد عطاؤه، ولا يخلق عن كثرة الرد، وإنك مهما أتيت تبحث في أغواره، وتسترجع آياته وأسراره، أعطاك من أسراره جديدا، وأوقفك على حِكَمٍ ولطائف بديعة، فهو الروح التي تسري في جنبات الحياة ليكون لها منهجا ومنهاجا، قال تعالي: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾"[2]"، فهو أساس صلاح النفس في مختلف أطوارها.

---

(١) سورة : فصلت : آية : ٤٢ .

(٢) سورة : الشورى : آية : ٥٢ .

ولقد قيض الله – تعالى – ثلة من العلماء – قديما وحديثا – راحوا يكشفون تلك الأسرار، ويبحثون عن تلك اللطائف، للوقوف على بيان أسرار جماله وجلاله، ولم لا وهو نمط فريد في تراكيبه وتصوراته، أسلوبا وتعبيرا، وطراز عال لا شبيه له في التأكيد والتقرير والتأثير، ومن ثم وقف بعضهم عند سياق التعبير بالكلمة القرآنية – اسما كانت أم فعلا – موضحين مناسبتها للسياق، وموافقتها للغرض، وملاءمتها للحال ومقتضياته ، مع جمال المخرج ، وحسن الموقع ، و الوقوف على جمله وتراكيبه ، وعلى النظم وحسن تنسيقه وسر إعجازه .

إن المسؤولية العظمى لعلماء اللغة بصفة عامة، ولأهل الفصاحة وأرباب البلاغة بصفة خاصة تجاه بلاغة آي الذكر الحكيم توضيحها وتقريبها للعامة والخاصة قصدا لبيان سر من أسرار إعجازه، الدال به على وجود الخالق، والبرهان الصادق على نبوة سيدنا محمد – ﷺ – وهي لا شك من أعظم المسؤوليات قدرا، وأجلها رفعة وعلو منزلة، وكلما تباعدت العصور، واختلفت الأزمنة ، وأصبح بون واسع موجودا بين عصور التذوق اللغوي والأدبي ، وبين عصور المادة ، والتطور التكنولوجي المجرد ، استوجب على المعنيين بعلم البلاغة والبيان الأخذ بأيد الناس إلى كتاب الله تعالى ، تفصيلا ، وتوضيحا ، وتعلما لتلك الدرر الكامنة في أعماقه ، والتي جاءت في التعبير بلفظة دون أخرى ، أو تركيب يمتاز عن آخر في موطنه ، طلبه السياق ، وارتضاه المقام ، خاصة وأن البلاغة العربية لاسيما البلاغة القرآنية منها كانت لها الدور الأقوى ، والصورة الأوضح في مراد الله تعالى من الخلق ، شرحا وتوضيحا وتفسيرا .

ومن ثم فإن من أجل نعم الله على المرء أن يشغل وقته، ويعمل زناد فكره في تدبر آيات الله، والوقوف على فصاحة ألفاظه، وبلاغة معانيه، وأن كل لفظة بجوار أختها كالعقد الفريد المنتظم على صورة لا نستطيع قبول غيرها إن وضعت حبة موضع أخرى وإن كانت من أجود النفائس وأغلاها، فجواهره لا تضاهى، وعجائبه لا تنقضي، " فالأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيِّز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، مع التناسق العجيب بين العبارة والمدلول ""[١]".

وتدبر آي الذكر الحكيم لاسيما التي احتوت على اسم من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، تترك في القلب إيمانا مخلصا ، ويقينا صادقا ، لما يحدثه من خوف ووجل ومحبة ومهابة في صفات تحمل معاني الجلال والجمال ، وكلما ازداد العبد معرفة ازداد حياءً وحباً وخشيةً .

وأسماء الله الحسنى التي ذكرت في القرآن الكريم ، والتي ختم بها كثير من آياته ، أو جاءت على سبيل التعداد والذكر مفتاحا للدعاء، وحصرا لها للإجابة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾"[٢]، كل هذه الأسماء جاءت على أكمل الوجوه وأبلغها مناسبة للمقام، متلائمة مع سياق الآيات ، ومعانيها، وموضوعات السور وفواصلها ومحاورها .

---

(١) ينظر : من أسرار التعبير في القرآن " صفاء الكلمة " دكتور / عبد الفتاح لاشين – صـ ٦ طبعة : دار المريخ للنشر ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

(٢) سورة : الأعراف : آية : ١٨٠

واسم الله " الواسع " من الأسماء الحسني التي تحمل في طياتها معنى الجلال بمهابته، ومعنى الجمال بلطفه ورحمته ، فله دلالة في سعة علمه – تعالى – وحكمته، وأن الناس مهما أوتوا من علم، ومهما عرف عنهم من حكمة، فهو في ميزان علم الله – تعالى – وحكمته قليل جدا.

وقد جاء هذا الاسم {الواسع} في القرآن الكريم متعدد المناحي، متنوع الأغراض، فتارة يأتي اسما مقترنا باسم الله {العليم} وتارة يأتي خبرا صفة مقترنا بخبر آخر وصفا لله تعالى وهو الحكيم في قوله {وكان الله واسعا حكيما}، وتارة يأتي مسبوقا بـ {إن} توكيدا للخبر، وتارة أخرى يأتي خاليا من التأكيد، ونجده يأتي تارة أخرى في صورة الفعل الدال على صفة من صفات الله تعالى، والبرهان على قدرته وإرادته، في مثال يحتذى به في الفصاحة والبيان، ولتلك الدلالات المتعددة والمتنوعة لهذا الاسم من أسماء الله الحسنى ، آثرت أن أبحث عن مكنون هذا الاسم، ودلالته البلاغية في التعبير به دون غيره من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، في آي الذكر الحكيم، ومن ثم كان عنوان هذا البحث:

" أثر السياق في اصطفاء التعبير باسم الله " الواسع "

في النظم القرآني "دراسة بلاغية تحليلية ".

فالكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي ترد فيه، وربما اتحد المدلول واختلف المعنى طبقا للسياق الذي قيلت فيه العبارة أو طبقا لأحوال المتكلمين والزمان والمكان الذي قيلت فيه، فالسياق في أحيان كثيرة يقوم

بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها،"[١]". وقد أشار العلماء إلى أهمية السياق أو المقام وتطلّبِه مقالا مخصوصا يتلاءم معه، بقولهم : لكل مقامٍ مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام"[٢]" .

ولذلك اتجه النحاة إلى اللغة المنطوقة، واعتنى البلاغيون بما وراء ذلك من للعلاقة بين المتكلم وما أراده، والمخاطب وما فهمه، والأحوال والمقتضيات التي تتناسب مع السياقين: المقالي والحالي.

وقد دفعني إلى دراسة هذا الموضوع – زيادة عما سبق – عدة أمور منها ما يتعلق بالجانب الديني القلبي، كتعلق هذا البحث بكتاب الله تعالى وتدبر آياته، وفهم معانيه، وكفى بهذا من الشرف والرفعة ما يمكن أن يتحصل عليها العبد؛ طلبا لرضا الله، والفوز برضوانه، لاسيما مع دراسة اسم من أسمائه الحسنى، التي يتوصل بها إلى المنهج الصحيح في الاعتقاد في الأسماء والصفات، وما عليه أهل السنة والجماعة .

ومنها ما يتعلق بالجانب الدراسي البلاغي، وهو حاجة الدراسات القرآنية إلى بحوث متخصصة في ألفاظ آياته ومعانيها، والتي تجمع مع التفسير الصحيح، البلاغة العالية، والدلالة الواضحة، وبيان حسن اصطفاء الكلمة دون غيرها، وسبك نظمها مع جارتها، وملاءمتها لسياق الكلام .

هذا : وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة ، وفهارس فنية كاشفة عما يحتويه البحث .

---

(١) ينظر: النحو والدلالة الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف "مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي" ٩٨، طبعة الأولى – القاهرة سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

(٢)الإيضاح في علوم البلاغة – للخطيب القزويني : ١ / ٤٣– ت : دكتور / محمد عبد المنعم خفاجي – طبعة : دار الجيل بيروت الثالثة ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م .

*أما **المقدمة** : فقد تناولت فيها أهمية هذا البحث ، والمنهج المتبع في الدراسة ، والخطة التي يسير عليها .

*وأما **التمهيد** : فقد اشتمل على تحديد ماهية اسم الله " الواسع " حسبما ورد في كتب اللغة وأساليب العرب في كلامهم، وهل هي أسماء أم صفات للفظ الجلالة " الله ".

*وأما **المبحث الأول**: فكان عنوانه: أثر السياق في اصطفاء اسم الله "الواسع " في مقام الحديث عن الأسرة وأحوالها .

*وأما **المبحث الثاني**: فكان عنوانه: أثر السياق في اصطفاء اسم الله "الواسع " في مقام الحث على الإنفاق

*وأما **المبحث الثالث** : فكان عنوانه : أثر السياق في اصطفاء اسم الله "الواسع " في مقام بيان عطاء الله

*وأما **الخاتمة** : فقد تناولت فيها أهم نتائج البحث ،ثم أردفت البحث بجملة من الفهارس الفنية الكاشفة لموضوعات البحث ومحتوياته .

وقد جاء البحث على هذا الترتيب، بداية بالحديث عن الأسرة وأحوالها؛ لكونها بناء الحياة، وبداية الطريق، وموطن السكن والرحمة، وهي انطلاق الإنفاق في سبيل الله، ومن ثم يكثر عطاءُ الله، وتنتشر نِعَمُهُ.

وإذا كان من اللازم لكل بحث أن يكون له نظام يسير عليه الباحث وطريق يسير عليه في بحثه وهو ما يسمى بالمنهج ، فالذي ينبغي التعويل عليه في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي الوصفي القائم على حصر المواضع التي ذكر فيها اسم الله "الواسع" في القرآن الكريم من خلال تنوع

صوره التي أتى عليها، ثم القيام بتحليلها بوضع كل موضع ذكر فيه اسم الله "الواسع" تحت عنوانه، وغرضه التفسيري، ثم القيام بتحليل تلك المواضع تحليلا بلاغيا دقيقا للوقوف على أسرار نظمه، وسر إعجازه، ويمكن القول بأنني استخدمت المنهج التكاملي الكلي التحليلي الذي يعتمد على النظرة الكلية للنص القرآني ، وتحليله في ضوء المقام الذي سيقت له الآيات القرآنية، وموضع اسم الله تعالى "الواسع" وسر اختياره دون غيره من الأسماء الحسنى في هذا المقام .

وإنني بهذه الدراسة أكون قد حاولت أن أقتبس من هذا النور، وإن بدا لي التقصير فحسبي أني قد عزمت بلوغ الأماني، والنية تعظم العمل، ومن كتب قبلي فكمل؟! فالله أسأل أن أكون من المخلصين، وأن يغفر لي كل تقصير .

والحمد لله رب العالمين .

الباحث

التمهيد

معنى اسم الله الواسع :

الواسع : من الفعل وسع المكون من (الواو، والسين، والعين) وهي مادة تدور حول معاني السعة واليسر والإحاطة، وهي على خلاف الضيق والعسر والتقصير، يقال : وسع المكان وغيره سعةً واتسع وتوسع واستوسع. قال النابغة: "[١]"

تَسَعُ الْبِلَادُ إِذَا أَتَيْتُكَ زَائِرًا *** وَإِذَا هَجَرْتُكَ ضَاقَ عَنِّي مَقْعَدِي

ولي في هذا المكان متّسع. وأوسعت الموضع: وجدته واسعاً...، ومن المجاز: إنه ليسعني ما يسعك، ولا يسعني شيء ويضيق عنك، ولا يسعك أن تفعل كذا. ووسّع الله عليه العيش وأوسعه، وأوسع الرجل واستوسع: اتسعت حاله، وهو في عيش واسع ""[٢]". " وَيُقَال: إِنَّه ليسعني مَا وسعك، ورَجل مُوسِع وَهُوَ المليء، والوُسْع: الجِدّة وقدرة ذَات الْيَد. وأوسع الرجلُ إِذا كثر مَاله. "[٣]"، " وَالسِّعَةُ: نَقِيضُ الضِّيق"[٤]"، والْوَاسِع : اسم من

---

(١) النابغة الذبياني : زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانيّ ، أبو أمامة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. من أهل الحجاز. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها،وهو أحد الأشراف في الجاهلية [الأعلام : خير الدين الزركلي:٢٥٥/٣ طبعة دار العلم للملايين، الخامسة عشر ٢٠٠٢م]، والبيت في ديوانه: صـ ٩٣ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم – القاهرة: د ار المعارف.

(٢) أساس البلاغة – أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري: ٢ / ٣٣٣ ، تحقيق: محمد باسل عيون السود – طبعة : دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

(٣) تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي،: ٣ / ٦١ – تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت الأولى، ٢٠٠١م

(٤) ينظر : لسان العرب – : جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقى ، مادة (وسع) – الناشر: دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ .

أسماء الله الحسنى" مشتق من السعة والسعة تضاف مرة إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم وكيف ما قدر وعلى أي شيء نزل فالواسع المطلق هو الله سبحانه وتعالى لأنه إن نظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته بل تنفد البحار لو كانت مدادا لكلماته وإن نظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته وكل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف والذي لا ينتهي إلى طرف فهو أحق باسم السعة والله سبحانه وتعالى هو الواسع المطلق لأن كل واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيق وكل سعة تنتهي إلى طرف فالزيادة عليه متصورة وما لا نهاية له ولا طرف فلا يتصور عليه زيادة تنبيه سعة العبد في معارفه وأخلاقه فإن كثرت علومه فهو واسع بقدر سعة علمه وإن اتسعت أخلاقه حتى لم يضيقها خوف الفقر وغيظ الحسد وغلبة الحرص وسائر الصفات فهو واسع وكل ذلك فهو إلى نهاية وإنما الواسع الحق هو الله تعالى" "[١]".

العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الدلالي لاسم الله (الواسع)

والعلاقة بين المعنيين ظاهرة فالمدلولان بينهما ارتباط لفظي ومعنوي، فهو – تقدست أسماؤه – واسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها ، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة، واسع السلطان، ملكه وقدرته وإرادته نافذة في كل مكان، وسع كرسيه السماوات والأرض، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم، لا ينقص من ملكه شيء مع كثرة العطاء، وانتشار كرمه وجودة في أرضه الواسعة،

(١) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي :صـ ١١٩ – المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي – الناشر: الجفان والجابي – قبرص – الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

فوسع علمه كل شيء، ووسعت حكمته الأمور كلها، سبحانه ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ "[1]".

أسماء الله الحسنى هل هي أسماء أم صفات ؟

الحق أن هذا التساؤل شغل حيزا كبيرا عند دارسي أسماء الله الحسنى ، وامتلأت مؤلفاتهم بحثا وتدقيقا ومدارسة لتلك المسألة ، حتى تشعبت الأفكار ، واختلفت الآراء ، فنتج عن ذلك في تلك المسألة رأيان :

أما الرأي الأول : فيرى أن ثمة تغاير بين الأسماء والصفات ، فالاسم يدل على الذات ، والصفات تدل على الأحوال ، وهو مذهب أبي حامد الغزالي، ومن تبعه في ذلك فيقول : " الِاسْم هُوَ اللَّفْظ الْمَوْضُوع للدلالة على الْمُسَمّى، فزيد مثلا اسْمه زيد وَهُوَ فِي نَفسه أَبيض وطويل فَلَو قَالَ لَهُ قَائِل: يَا طَوِيل، يَا أَبيض فقد دَعَاهُ بِمَا هُوَ مَوْصُوف بِهِ وَصدق، وَلكنه عدل عَن اسْمه إِذْ اسْمه زيد دون الطَّوِيل والأبيض، وَكَونه طَوِيلا أَبيضاً لَا يدل على أَن الطَّوِيل اسْمه بل تسميتنا الْوَلَد قاسما وجامعا لَا يدل على أَنه مَوْصُوف بمعاني هَذِه الْأَسْمَاء بل دلَالَة هَذِه الْأَسْمَاء وَإِن كَانَت معنوية عَلَيْهِ كدلالة قَوْلنَا زيد وَعِيسَى وَمَا لَا معنى لَهُ بل إِذا سميناه عبد الْملك فلسنا نعني بِهِ أَنه عبد الْملك وَلذَلِك نقُول عبد الْملك اسْم مُفْرد كعيسى وَزيد وَإِذا ذكر فِي معرض الْوَصْف كَانَ مركبا وَكَذَلِكَ عبد الله لذَلِك يجمع فَيُقَال عبادلة وَلَا يُقَال عباد الله ، وَإِذا فهمت معنى الِاسْم فاسم كل أحد مَا سمى بِهِ نَفسه أَو سَمَّاهُ بِهِ وليه " ([2])

---

(١) سورة : الأنعام : آية : ١٠٣ .

(٢) ينظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى : صـ ١٧٣ ، ١٧٤

وأما الرأي الثاني : فيرى أن المراد من أسماء الله الحسنى صفاته، وأن صفاته هي أسماؤه فلا تغاير بينهما " فأسماء الرب – تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف"(١)، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم لفظا في قوله :﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ "٢"، فسماها أسماء لا صفات ، وكل اسم من أسمائه تعالى له صفة خاصة، فإن أسماء الله أوصاف مدح وكمال، ومن ثم فلا فرق بين الاسم والصفة لكونهما يحملان دلالة واحدة، ويطلقان على مسمى واحد.

التوفيق بين الرأيين :

إن كان للباحث من رأي في تلك المسألة فإنه يرى أن ثمة فرقاً دلالياً في الدراسة المعجمية لمعنى الأسماء والصفات ، فهناك تغاير وتباين بين المفردتين ، فالاسم ما دل على الذات، والوصف ما دل على الأحوال ، كما ذهب أصحاب الرأي الأول، ولكن لما اشتهرت الصفة على المسمى، وعُرِفَ بها عند إطلاقها علما على مسمى معين ، تنقل من باب الصفات إلى باب الأسماء فهي صفات دلت بمفهومها على ذات معينة ، وهي أسماء حوت صفات قوي ظهورها في تلك الذات، وهو ما ذهب إليه أصحاب الرأي الثاني، ومن ثم فلا مشاحة في الاصطلاح ، ولا تغاير في الدلالة ، ويحمد لكل مقصد مذهبه ، ويؤيد ذلك أن أسماء الله تعالى كلها توقيفية، لا يُسَمَّى بها إلا بما سمى به نفسه في كتابه، أو على ألسنة رسله – عليهم الصلاة والسلام –،

---

(١) ينظر : أسماء الله الحسنى وصفاته العليا – بن قيم الجوزية : صـ ٣٩ ، تحقيق : عماد زكي البارودي – طبعة : المكتبة التوفيقية –

(٢) سورة : الأعراف : آية : ١٨٠

وكل فعل أطلقه الله تعالى على نفسه فهو فيما أطلق فيه مدح وكمال"[١]"، "فهي أسماء وأوصاف في وقت واحد، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولجاز وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس ""[٢]".

اسم الله (الواسع) بين الحقيقة والمجاز .

في تلك المسألة مذاهب مختلفة ، ووقفات متنوعة ما بين واقف على ما جاء به الوحي من غير تفسير لها ولا تأويل والسكوت عن الخوض في تحديد معانيها ، وبين موسع للدلالة ، ذاهب بالأسماء والصفات – إن أمكن ذلك – إلى باب المجاز الموضح والمفسر والمحدد للمعاني .

أولا: القائلون بالحقيقة : مذهب السلف ومن حذا حذوهم"[٣]": يرون الوقوف في صفات الله – تعالى – وأسمائه في كتابه، أو على لسان نبيه –

---

(١) كما يؤيده قول النبي – ﷺ – «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ، إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ بَصَرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا» [مسند الإمام أحمد بن حنبل– مسند عبد الله ابن مسعود– المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون –ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م]

(٢) ينظر : أسماء الله الحسنى وصفاته العليا – ابن قيم الجوزية : صـ ٣٩ .

(٣) السلف : هم أقرب الأمة إلى تمثيل الإسلام فهما وإيمانا وسلوكا والتزاما ، ومن الخطأ أن ننسب منهجهم إلى فرقة معينة ، أو مذهب مخصوص ، ومن الخير أن يظل المسمى مفتوحا لكل فرد أو طائفة على مر العصور لكل من يلتزم في أفعاله واعتقاده لما جاء عليه الوحي : نصا وروحا ، كما أنه من الأخطاء التي يجب تصحيحها – هنا – اعتبار النبي – ﷺ – من جملة السلف ، لكونه – ﷺ – النور المبين، والمصدر الأصيل الذي تلقى عنه السلف دينهم، فكيف يكون من جملتهم ؟!

ﷺ – من غير تفسير لها، ولا تأويل، بل أمروها كما جاءت ، وردوا علمها إلى قائلها ، ومعناها إلى المتكلم بها ""[١]"، فكل ما وصف الله به نفسه في القرآن الكريم فقراءته تفسيره""[٢]"، وعلى هذا المذهب فإن ورود اسم الله "الواسع" في القرآن الكريم في كل مواضعه حقيقة بعيدة عن التأويل القائم على التمثيل والمجاز، وينبغي الوقوف على تفسيرها عند حد قراءتها .

ثانيا : القائلون بالمجاز : وهم أهل اللغة وأرباب البيان ومن حذا حذوهم من العلماء والمفسرين، فقد ذهبوا إلى أن اسم الله (الواسع) في القرآن الكريم والذي جاء على اسم الفاعل وصفا لله تعالى مضافا أو متلواً بلفظ يحملها على المجازية، وقد ذهب شيخنا الدكتور / عبد العظيم المطعني

---

(١) ينظر : ذم التأويل لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن قدامة ، صـ ٢٥ طبعة : القاهرة ١٣٥١هـ .

(٢) ينظر : الأسماء والصفات لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، صـ ٤٢٩ طبعة: القاهرة: ١٣٨٥هـ . وحجتهم في ذلك أمران: الأمر الأول : المنع الوارد في التنزيل الواقع في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران:٧}. ولا مناص لمن يريد أن يحترز عن الزيغ أن يمتنع عن التأويل والتفسير والتصريف وغير ذلك .– والأمر الثاني: أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق، والقول في صفات الباري بالظن غير جائز، فربما أولنا الآية على غير مراد الباري – تعالى – فوقعنا في الزيغ ، بل نقول كما قال الراسخون : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [ينظر: الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٩٥، تحقيق : بدران ، طبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٥ م، والتفكير الفلسفي في الإسلام للشيخ عبد الحليم محمود : ١٣٢ – ١٣٧ طبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ م

إلى أن مجيء مادة " واسع " على صورة اسم الفاعل وصفاً لله على سبيل المجاز كذلك متلوة بلفظ الحكمة مرة وبلفظ العلم سبع مرات:

– قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ "[١]"

– قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "[٢]"

– قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "[٣]"

– قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "[٤]"

– قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "[٥]"

– قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "[٦]"

– قوله تعالى : ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "[٧]"

– قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "[٨]".

ثم عقب بقوله :" تلك هي مواضع استعمال هذه المادة وصفا لله سبحانه على التمثيل المجازي، وقد حرص القرآن الكريم على أن يقرن إلى

---

(١) سورة : النساء : آية : ١٣٠
(٢) سورة : البقرة : آية : ٢٤٧
(٣) سورة : البقرة : آية : ٢٦١
(٤) سورة : البقرة : آية : ٢٦٨
(٥) سورة : آل عمران : آية : ٧٣
(٦) سورة : المائدة : آية : ٥٤
(٧) سورة : النور : آية : ٣٢
(٨) سورة : البقرة : آية : ١١٥

وصف الله بهذه الصفة: "واسع" كلمات وأوصافاً أخرى تمهد لهذا الوصف المجازي، وتشير إلى جهة مسوغ هذا الوصف، وهذا المسوغ نوعان: وصف يُذكر بعده، أي بعد الوصف المجازي، وكاد ينحصر هذا الوصف في "عليم " إلا في موضع واحد كان هذا الوصف " حكيماً"، ولا شك أن العلم يوصف بالسعة وكذلك الحكمة لأنها بمعناه، وكلمات تتقدم عليه وكادت تنحصر هذه الكلمات في الفضل، والفضل يوصف بالسعة، فإن لم تكن "الفضل" فهي السعة والمغفرة والحكمة والمضاعفة، هذه المعاني متقدمة أو متأخرة مهَّدت لوصف الله بالوسع، فلم يكن هذا الوصف مستغرباً أو نابياً وإن كان يستخدم في وصف المساحات، وشتان ما بين المساحات وبين اسم "الجلالة" الموصوف في الآيات"(١).

ومن خلال هذا البحث سأتناول تلك المواضع ومقاماتها، وأثر السياق القرآني في بنية الآيات المنتهية باسم الله " الواسع" ، وبيان العلاقة بين ما تحتويه الآيات من معان وفاصلتها، واختصاص تلك الآيات بأن تكون فاصلتها مشتملة على اسم الله "الواسع" ومدلول ذلك على المعنى، والسر البلاغي في ذلك .

(١) ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : عبد العظيم إبراهيم المطعني : ٧٨٨، ٧٨٩ ، الناشر: مكتبة وهبة ،: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

المبحث الأول

أثر السياق في اصطفاء التعبير باسم الله " الواسع "

في مقام الحديث عن الأسرة

من الأمور الثابتة في طبائع المسلم وعقائده السمحة أن القرآن الكريم وهو المنهج القويم يعتمد في المقام الأول على إصلاح المجتمعات وتطهيرها من كل ما يفسدها ظاهرا وباطنا، ومن ثم عمل على إصلاح أفراده وجماعاته، وجعل حياتهم مبنية على الطهر والعفاف، دون خوف من شظف العيش، وضيق الحياة، وقلة الحيلة، فأمرهم بالزواج طلبا للعفاف والسكن، وإحداث المودة والرحمة في ذلك البناء الجديد، دون الخوف من القيود المادية، أو المتطلبات الحياتية، قال تعالى : ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١)، أي: يغنيهم الله من فضله بالنكاح وسعة الرزق.

ثم هو بعد ذلك أيضا يفتح لهم باب التفرقة والانفصال إن ضاقت بهم السبل، ولم يعد لمجال الصلح باب،" فقد قيل:"أجمل القبيح الطلاق...وإذا لم يكن وفاق فطلاق "(٢)، وجعل ذلك أيضا دون قيد أو شرط طلبا للعفاف والطهر، وسعيا لسعة العيش وطيب الحياة، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (٣) أي : يغنيهم بالنكاح والسعة في

---

(١) سورة االنور : آية: ٣٢

(٢) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار- : لمحيي الدين، ابن الخطيب قاسم الأماسي الحنفي، صـ ٣٠٣، الناشر: دار القلم العربي، حلب-: الأولى، ١٤٢٣ هـ

(٣) سورة النساء : آية : ١٣٠.

الرزق؛ لأنه لم يجعل كل زوج مقصوراً على زوج أبداً، وتلك من سعة رحمة الله وعظيم فضله .

ومن بديع التعبير في السياق القرآني في الحالتين أنه جعل فاصلة كل منها متوافقة ، حين عبر في الموضعين باسم الله " الواسع " وما يحتويه من دلالة كثرة العطاء وعموم النفع في الأحوال كلها ، فعطاؤه يسع كل من يسأله ، حتى وإن كانت المقامات مختلفة ، والأحوال متغيرة كحالتي الزواج والطلاق المختلفتين حالا ومآلا .

ومن يتأمل هذين الموضعين المختلفين يتبين له أن اسم الله "الوسع" جاء وفق مقتضى السياق الدلالي للآيتين الكريمتين، والذي يتمحور حول السلوك البشري، والنوازع الفطرية المختلفة، قبولا ورفضا، إيجابا وسلبا؛ ليوضح لهم سبل التعامل التي تتجلى في سعة فضل الله، وعظيم كرمه في حالتين متناقضتين، يظن المرء إن أقبل على فعلها أنه يفتح على نفسه أبواب الفقر، وسبل الضيق، فيأتي اسم الله "الواسع" وما يحتويه من دلالات وأسرار، زيادة عما يعقبه من معاني العلم والحكمة من طمأنة للنفس، آخذ بها إلى شرع الله القويم المبني على المنفعة القائمة بين الطرفين: الزوجين في حال الوفاق، الرجل والمرأة في حال الفراق، وفي الحالتين دعوة إلى بقاء المودة والرحمة ، وانتشار التسامح بين الناس .

<u>وبدراسة هذين الموضعين دراسة تحليلية بلاغية من خلال السياق القرآني يتضح حسن موقع التعبير باسم الله " الواسع " وبلاغة التعبير به دون غيره من أسماء الله الحسنى، وصفاته العلا .</u>

الموضع الأول : قوله تعالى ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

والسياق هو موضوع سورة النور، وهي سورة تظهر فيها وحدة الموضوع ظهورا لا يلتبس، إذ هي تدور حول تنظيم الآداب الواجب توافرها في علاقات الرجال بالنساء، والتشديد على مراعاة هذه الآداب ، حتى يظل تسلسل الوجود الإنساني الممثل للخلافة في الأرض نابعا من نبع الطهر ، بعيدا عن الريبة "٢".

إذا كان القصد في المناكحة التأدب بآداب الشرع يكفى الله ببركاته مطالبات النفس والطبع، وإنما يجب أن يكون القصد إلى التعفّف ثم رجاء نسل يقوم بحقّ الله "٣" ، فالمناكحة باب موصل إلى التقوى ، التي هي مفتاح السعة في الرزق ،قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ "٤"، ومن ثم تتحقق المناسبة ، ويظهر الرابط بين صدر الآية القرآنية وفاصلتها ، وهذه الآية خطاب للأولياء المأمورين بتزويج من لا زوج له ومن لا زوجة له ، والمعنى: زوّجوا أيها الأولياء الأيامى: وهم كل رجل أو امرأة لا زوج لهما، وزوّجوا الصالحين من الأولاد والإماء للزواج، وهذا الأمر للندب والاستحسان .

---

(١) سورة النور : آية : ٣٢

(٢) من الحصاد القديم – دكتور/ محمد محمد أبو موسى صـ ٣٦٩ –٣٧٠ ، طبعة : مكتبة وهبة – الأولى – ١٤٣٩هـ ،٢٠١٨ م .

(٣) لطائف الإشارات تفسير القشيري عبد الكريم بن هوازن القشيري: ٢ / ٦٠٩، المحقق: إبراهيم البسيوني – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر –الثالثة .

(٤) سورة الطلاق : آية : ٢ ، ٣ .

وعلاقة الآية بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر في بداية السورة الكريمة بعضا من الفعال المشينة الهادمة للمجتمعات ، المسببة للتفرقة ، وتقطيع الأواصر بين الأسر بسبب ما يُفْعَلُ من زنا ، وملاعنة بين الزوجين، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات (حادثة الإفك) ، وإتباع خطوات الشيطان ، وذكر عقوبة كل منها ، ناسب بعد ذلك أن يوضح علاج تلك الآفات والوقاية من الوقوع فيها ، معددا إياها ، وكان الزواج من أهم تلك الصور التي جاءت في معرض ذكر العلاج وأسباب الوقاية ، فجاءت الآية الكريمة تحث الأولياء والسادة على فعل ذلك دون خوف من ضيق العيش ، وقلة الحاجة ، يقينا في سعة فضل الله وعلمه .

قال صاحب نظم الدرر :" ولما تقدم سبحانه إلى عباده في الأمور العامة للأحوال والأشخاص في الزنا وأسبابه، فحكم وقرر، ووعظ وحذر، أتبعه أسباب العصمة التي هي نعم العون على التوبة فقال مرشداً: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾"(١) ، " فأردفت أوامر العفاف بالإرشاد إلى ما يعين عليه، ويعف نفوس المؤمنين والمؤمنات، ويغض من أبصارهم، فأمر الأولياء بأن يزوجوا أَيَامَاهُمْ ولا يتركوهن مُتَأَيِّمَاتٍ؛ لأن ذلك أعف لهن وللرجال الذين يتزوجونهن، وأمر السادة بتزويج عبيدهم وإمائهم. وهذا وسيلة لإبطال البغاء "(٢) .

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي :١٣ / ٢٦٥– الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

(٢) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» – : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي : ١٨ / ٢١٥ – الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس .

وألفاظ الآية الكريمة من أول كلمة فيها ناطقة بالمعنى المحوري الذي تدور حوله ، وهو سعة فضل الله ، ومزيد عطائه ، وعلمه المطلق بجزئيات الأمور وكلياتها ، حتى وصل المقام إلى ختام الآية بما يدل على ذلك لفظا ، طلبه السياق ، واستدعاه المقام .

فالأمر في قوله﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ ﴾ موجه للأولياء والسادات، أي زَوِّجُوا مَن لا زوجَ له مِن الأحرارِ والحَرَائرِ.

هذا أمر بالتزويج، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه."[١]"، وقد ذهب الزمخشري إلى أن هذا الأمر للندب " لما علم من أنّ النكاح أمر مندوب إليه""[٢]"، وعلى ذلك يكون الأمر على سبيل النصح والإرشاد الغرض منه رسم سبل الهدى والرشاد للمأمورين بالتزويج من الأولياء أو السادة .

والحق إن صيغة الأمر- هنا- مجملة تحتمل الوجوب والندب بحسب ما يعرض من حال المأمور بإنكاحهم ، فإن كانوا مظنة الوقوع في مضار في الدين أو الدنيا كان إنكاحهم واجبا، وإن لم يكونوا كذلك إنكاحهم مستحب(٣)، وأما من حمل الأمر على الإباحة، فهو محمل ضعيف في مثل هذا المقام إذ ليس المقام مظنة تردد في إباحة تزويجهم.(٤) وهذا الأمر مع اختلاف

---

(١) تفسير القرآن العظيم- (تفسير ابن كثير) لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: ٦ / ٥١ - المحقق: سامي بن محمد سلامة - الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - أبو القاسم محمود بن عمرو جار الله الزمخشري: ٣ / ٢٣٢ - ط: دار الكتاب العربي - بيروت -الثالثة - ١٤٠٧ هـ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ١٨ / ٢١٧ بتصرف .

(٤) ينظر : السابق نفسه .

المذاهب فيه بين الوجوب أو الندب، فإن ذلك يقتضى النهي عن عَضْلهن من التزويج(١). فصيغة الأمر وتحديد دلالاتها شغلت الدارسين في كثير من المجالات، خاصة الفقهاء والأصوليين، لاتصال الصيغة بالوجوب والندب، وما إلى ذلك من أحكام فقهية توجب الحذر في الدراسة والاستنتاج، وقد وجد الخطيب بين يديه آراء كثيرة جمع سعد الدين وغيره منها قدرا، فذكروا أنها للوجوب فقط، أو للندب فقط، أو لمعنى يشمل الوجوب والندب، وهو الطلب على جهة الاستعلاء، أو هي من الألفاظ المشتركة بين الوجوب والندب كاشتراك الخال وغيره، أو هي مشتركة ليس بين الوجوب والندب فقط، وإنما الإباحة أيضا، فهي موضوعة لكل منها، أو هي موضوعة لمعنى يشملها مثل الأذن"(٢)

وَالْأَيَامَى: جمعُ (أَيِّمٍ) ، وإنما جُمع (أَيَامَى)، لأنها (فَعِيلَةٌ) في المعنى، فجُمعَتْ كذلك كما جُمِعتِ اليتيمة:(يتامى)؛ ومنه قول الشاعر:(٣)

أُحِبُّ الْأَيَامَى إِذْ بُثَيْنَةُ أَيِّمٌ ... وَأَحْبَبْتُ لَمَّا أَنْ غَنِيتِ الْغَوَانِيَا

ولو جمعت (أَيَائِمَ) كان صوابا،(وَالْأَيِّمُ) يُوصَف به الذكر والأنثى ، يقال: رجل أَيِّمٌ، وامرأة أَيِّمٌ وَأَيِّمَةٌ: إذا لم يكن لها زوج؛ ومنه قوله(٤)

---

(١) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي :٣ / ٣٣١ – دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

(٢) دلالات التراكيب – دراسة بلاغية – دكتور : محمد محمد أبو موسى صـ ٢٦٣ – طبعة مكتبة وهبة ، الطبعة : السادسة : ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧ م .

(٣) البيت من الطويل، وهو لجميل بثينة في ديوانه ص٢٢٦ طبعة : دار بيروت – بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

(٤) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة في أساس البلاغة (أيم)؛ وتاج العروس (أيم)؛

فَإِنْ تَنْكِحِي أَنْكِحْ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي ... وَإِنْ كُنْتُ أَفْتَى مِنْكُمُ أَتَأَيَّمِ

ومن في قوله:" منكم" تبعيضية، أي من نساء المسلمين غير المتزوجات ؛" لأن غير المسلمات لا يخلون عند المسلمين من أن يكن أزواجا لبعض المسلمين فلا علاقة للآية بهن، أو أن يكن مملوكات فهن داخلات في قوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ ، وأما غيرهن فولايتهن لأهل ملتهن ". (١)

وتتجلى بلاغة الطباق بين الْأَيَامَى (وصفا للحرائر) ، والإيماء (وصفا للأرقاء) ويقيد الإيماء بالصَّلاحِ في الأرقَّاءِ دون الأحرار ؛ لأنَّ من لا صلاحَ له منهم بمعزل من أن يكون خليقا بأن يعتني مولاه بشأنه ، ويشق عليه ، ويتكلَّفُ في نظمِ مصالحهِ بما لا بدَّ منه شَرعاً وعادةً ، من بذل المالِ والمنافعِ، بل حقه أن يستبقيَه عنده ، وعدم ذكر الصَّلاحِ في جانب الْأَيَامَى " فلأنَّ الغالبَ فيهم الصَّلاحُ على أنَّهم مُستبدُّون في التَّصرفاتِ المتعلِّقةِ بأنفسهِم وأموالهم فإذا عزمُوا النِّكاحَ فلا بدَّ من مساعدةِ الأولياءِ لهم إذ ليسَ عليهم في ذلك غرامةٌ حتَّى يُعتبر في مقابلتها غنيمةٌ عائدةٌ إليهم عاجلةً أو آجلةً وقيل المرادُ هو الصَّلاحُ للنِّكاحِ والقيامِ بحقوقهِ . (٢)

كما أن تقييد أحد الضدين بالصلاح في قوله : ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أغنى عن ذكره في جانب الأول ، ولا يغني العكس " فإذا كان الصالحون من الأرقاء والمماليك موصى في حقهم التزوج بسبب الصلاح، فالحرائر أولى بالتوصية أن يحترزن عن نكاح الفاسقين، والأحرار عن

(١) التحرير والتنوير : ١٨ / ٢١٦ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – تفسير أبي السعود –:٦ / ١٧١ – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

الفواسق، لأن السبب في شرعية النكاح التحصن في الدين، وحفظ الصلاح، والتكاثر من الصلحاء، فعلى هذا قولـــه تعـــالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ تأكيدٌ للآية وموافقةٌ لها" (١)

وظاهر وصف العبيد والإماء بالصالحين أن المراد اتصافهم بالصلاح الديني ، أي الأتقياء، قال مقاتل: يقول: زوجوا المؤمنين من عبادكم وإمائكم، فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج، فمعنى الصلاح ههنا الإيمان(٢) ، والمعنى: " لا يحملكم تحقق صلاحهم على إهمال إنكاحهم لأنكم آمنون من وقوعهم في الزنا، بل عليكم أن تزوجوهم رفقا بهم ، ودفعا لمشقة العنت عنهم ، فيفيد أنهم إن لم يكونوا صالحين كان تزويجهم آكد أمرا ، وهذا من دلالة الفحوى فيشمل غير الصالحين غير الإعفاء والعفائف من المماليك المسلمين، ويشمل المماليك غير المسلمين. وبهذا التفســير تنقشــع الحيــرة التــي عرضــت للمفسرين في التقييد بهذا الوصف. وقيل أريد بالصالحين الصلاح للتــزوج بمعنى اللياقة لشؤون الزوج، أي إذا كانوا مظنة القيام بحقوق الزوجية". (٣)

وقوله تعــالى : ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ جملــة ممهــدة للفاصلة القرآنية ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ ، والمعنى إن يكونوا فقراء يــرزقهم

---

(١) ينظر : حاشية الطيبي على الكشاف- " فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب" لشــرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي: ١١/ ١٥ ت: إياد محمد الغوج وغيره الناشــر: جــائزة دبي الدولية للقرآن الكريم - الأولى، ١٤٣٤ هـــ - ٢٠١٣ م.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن علي بــن أحمــد بــن محمــد الواحــدي، النيسابوري: ٣ / ٣١٨ - تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان - الأولى، ١٤١٥ هـــ - ١٩٩٤ م

(٣) التحرير والتنوير : ١٨ / ٢١٦ .

الله من فضله وسعته ، وهذا الأمر منصرف إلى الحرائر فقط دون العبيد ، فالعبد لا يوصف بالفقر أو بالغنى ، فهو وما ملكت يداه لسيده ، قال قتادة : " ثم رجع إلى الأحرار، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ لا سعة لهم للتزوج، ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وعدهم أن يوسع عليهم عند التزوج"(١).

فإن قال قائل: إن ذلك عائد على جميع المذكورين من الأيامى والعبيد والإماء، فأثبت للعبد الغنى والفقر ، " قيل له: لا يخلو قوله: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من أن يكون المراد به الغنى بالوطء الحلال عن الحرام أو الغنى بالمال فلما وجدنا كثيرا من المتزوجين لا يستغنون بالمال، ومعلوم أن مخبر أخبار الله لا محالة كائن على ما أخبر به، علمنا أنه لم يرد به الغنى بالمال وإنما أراد الغنى بالوطء الحلال عن الحرام. وأيضا فإنه إن أراد الغنى بالمال فإنه مقصور على الأيامى والأحرار المذكورين في الآية دون العبيد الذين لا يملكون "(٢) ، فاللفظ وإن كان عاما في المال وغيره ، إلا أنه يمكن أن يحمل المعنى فيه – هنا – على الغنى بالعفاف فيكون المعنى وقوع الغنى بملك البضع والاستغناء به عن الوقوع في الزنا".

والذي عندي أن الآية ليست من الإخبار عما هو حادث أو سيحدث ، وإنما هو خبر أريد به معنى النهي والمعنى لا يكن فقر من تخطبون له أو من تريدون خطبتها عائقا بينكم وبين إتمام ما عزمتم عليه ففضل الله واسع،

---

(١) تفسير الوسيط للواحدي : ٣ / ٣١٨

(٢) أحكام القرآن : أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي :٣ / ٢٤٥ – المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين – الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م

وعطاؤه دائم لا ينقطع، وعلمه نافذ في الأمور كلها، وهذا يتناسب مع الأحوال كلها ، حال الغنى وحال الفقر قبل التزويج وبعده ،

قال فخر الدين الرازي: " هذا ليس وعدا من الله تعالى بإغناء من يتزوج. بل المعنى لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها ففي فضل الله ما يغنيهم، والمال غاد ورائح، وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح، فهذا معنى صحيح وليس فيه أن الكلام قصد به وعد الغنى حتى لا يجوز أن يقع فيه خلف""(١) ، فقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوجوا بل يزداد فقرهم ، وتضيق حالهم ، وذلك لحكمة مسبقة في علم الله تعالى ، ولذلك يمكن حمل المعنى على أنه يغنيه بغنى النفس، قال صاحب تفسير اللباب في علوم الكتاب :" فإن قيل: فنحن نرى من كان غنياً فتزوج فيصير فقيراً؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا الوعد مشروط بالمشيئة في قوله: {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ}(٢)، والمطلق يحمل على المقيد.

ثانيها: أن اللفظ وإن كان عامّاً إلا أنه يخصّ بعض المذكورين دون البعض، وهو في الأيامى الأحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون.

ثالثها: المراد بالغنى: العفاف، فيكون الغنى هنا معناه: الاستغناء بالنكاح عن الوقوع في الزنا".(٣)

---

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير – أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري : ٢٣ / ٣٧١ ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ .
(٢) سورة التوبة : آية : ٢٨ .
(٣) اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني: ١٤ / ٣٦٨ المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان–: الأولى،١٤١٩ هـ –١٩٩٨م

والقول بمجيء الإنشاء في لفظ الخبر لا يعني أن المسألة لفظ ، وأن الإنشاء بقي كما لو كان في لفظ الإنشاء ... الأمر أدق من هذا ؛ لأن الذي يحدث تغييرٌ في الحس بالمعنى ، والشعور به ، ولو تأملت لوجدت الحقيقة المعنوية والنفسية المعبر عنها بلفظ الإنشاء غير الحقيقة المعنوية والنفسية المعبر عنها بلفظ الخبر (١) .

كما أن في هذا التعبير القرآني من السمات البلاغية المتعددة والتي تتناسب ومقام الحديث عن فضيلة النكاح كالتنبيه على أنّ المطلوب وهو الغنى والخروج من حالة الفقر أو خشية الوقوع فيه أمر سهل يسير ، قد توافرت أسبابه ، كما أن فيه إظهار الرغبة في حصول المطلوب، والتنبيهُ على لزوم سُرْعة الامتثال لهذا الأمر التكليفي، مع حمل المخاطب على فعل التزويج بألطف أسلوب، مع إظهار العناية والاهتمام بهذا المعنى المرغب فيه الذي ينقل المتمثل به من حال الضيق والفقر إلى حال السعة والغنى، " فإن النفس إذا عظمت رغبتها في شيء تخيلت غير الواقع واقعا، وبنت الكلام على هذا التخيل، وأجرته على نسجه، ومثل هذا لا يوجد فيما لو جاء الكلام على ظاهره من النهي المباشر.

وبين جملة ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ والتي قبلها شبه كمال اتصال لأن عموم الأيامى والعبيد والإماء في صيغة الأمر يثير سؤال الأولياء والموالي أن يكون الراغب في تزوج المرأة الأيم فقيرا فهل يرده الولي، وأن يكون سيد العبد فقيرا لا يجد ما ينفقه على زوجه، وكذلك سيد الأمة يخطبها رجل فقير حر أو عبد فجاء هذا ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن

(١) ينظر : دلالات التراكيب : صـ ٢٨٢

فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ لبيان إرادة العموم في الأحوال، وتكمن بلاغة التعبير بهذا الأسلوب القرآني في هذا الاتصال المعنوي بين المتكلم والمخاطب في استحضار الذهن، والحوار النفسي الذي به يتصل الكلام في الجملتين بغير أداة كأن الكلام واحد، زيادة عما في هذه الصورة من كشف الخفي وإيضاح المبهم، وإزالة الحجب عن الغامض، وجعله ظاهرا واضحا، زيادة عما في الجملة الثانية من هذا الاستئناف البياني من تقييد بالشرط وهو يحتاج إلى فعل الشرط وجوابه، فازداد به المعنى وضوحا، وتأكد أسلوب الأمر للنصح والإرشاد في ثنايا الكلام وتأكيد المعاني، والذوق البلاغي الأصيل يهتدي إلى الاتصال الموجود في مثل هذا الموضع من مواضع الفصل، كما اهتدى إليه في كمال الاتصال ، إذ لا فرق بين جواب سؤال صريح، أو جواب سؤال مقدر، مادام السؤال موجودا ومعتبرا في الذهن؛ "لأن السؤال المقدر ليس محذوفا مهملا، بل هو حي نابض في الذهن ، كثير الخوالج والخيالات، وهو أدخل في البلاغة ، وأوسع مجالا من السؤال الصريح"(١) .

ولاشك أن شبه الاتصال الموجود بين الجملتين ساعد على تقوية وتلاحم المعنى، وترابط أجزاء جملتي النفي والإثبات تحمل كل منها معنى الأخرى في بناء محكم قوي لا يحتاج إلى رابط ظاهر يربط الجمل وبعضها ، وهذا جعل الألفاظ تشتد وتقوى في الدلالة .

ثم نصل إلى الفاصلة القرآنية وما تحمله من تعليل وتفصيل لكل ما سبق لها من تمهيد بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، أي واسع الفضل، وموسع في الرزق، يوسع على من يشاء عَلِيمٌ بقدر ما يحتاج إليه كل واحد منهم،

(١) ينظر: دراسات في علم المعاني – دكتور حسن مخيمر : ١٩١ بدون : ط ،: ت

وهي جملة استئنافية تعليلية مفسرة لما احتواه الأمر بالنكاح، واختيار اسم الله الواسع، وما يحتويه من دلالة معجمية دالة على سعة الفضل، وكثرة العطاء غني ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق، ووقوعه خبرا للفظ الجلالة " الله " وما يحمله من معنى الجمال في مقام العطاء والسعة وما يتركه في النفس من طمأنينة وراحة نفس تجعل الأولياء والسادة يشمرون عن ساعد الجد ، والقيام بما أمروا به تكليفا ، من تزويج الأحرار والإيماء دون الخوف الفقر، أو خشية الوقوع فيه فاللَّهُ هو المدبر المصلح لأحوالهم مِنْ فَضْلِهِ وسعة جوده ورحمته لعباده بعد النكاح وَاللَّهُ المتكفل لأرزاق عباده واسِعٌ يوسع عليهم من رزقه عَلِيمٌ برثاثة حالهم مغن علمه بهم عن سؤالهم(١)

واقتران الخبر بخبر ثان في قوله : ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لتعدد الأخبار بتعدد الأحوال فليس كل من تزوج وسع الله عليه ظاهرا ، فقد تكون السعة في أمر آخر غير المال وسعة الرزق المادي ، ومن ثم جاء بقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي : عليم بمصالح خلقه ، فيعطي هذا ، ويمنع عن هذا ، وفي المنع عين العطاء ، ولذا فإن جملة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وإن كانت مستأنفة إلا أنها مؤكدة لما قبلها ومقررة لها .

ومع عجيب الأسلوب القرآني وبديع نظمه أن كل جملة في الآية يمكن الوقوف عليها، ومع ذلك ترى بينها تماسك في النص، وتلاحم بين المعاني، قال يعقوب: " ومن الوقف قول الله جل وعز " وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ

(١) ينظر : الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية – نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان :٩/٣ – الناشر: دار ركابي للنشر – الغورية، مصر ، الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م

وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ " فهذا التمام من الوقف، ثم قال جل وعز: {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ }، وهو كاف، { وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } قطع تام(١).

ومع هذا القطع والاستئناف المتكرر في الآية إلا أننا نرى كل جملة متولدة عما قبلها، كاشفة لمعناها، مظهرة لمقصدها وفحواها، فالأولى آمرة بالمناكحة القصد منه التأدب بآداب الشرع، وإن حدث يكفى الله ببركاته مطالبات النفس والطبع، والثانية جواب عن سؤال أثارته فحوى الجملة الأولى، وهذا الجواب بمثابة الحوار النفسي الذي به يتصل الكلام في الجملتين بغير أداة، فكأن الكلام واحد تولد بعضه من بعض، أما الجملة الثالثة، مع كونها استئنافية إلا أنها تعليلية مفسرة لما احتواه الأمر بالنكاح، مؤكدة لما قبلها ومقررة له، وهذا التماسك النصي للآية، وترابط أجزائها، وتعلق بعضها ببعض، ويأخذ كل معنى برقاب صاحبه " له بعد نفسي مهم ، يمنح النص القدرة والفاعلية في مجال التأثير في المتلقي ، وإحداث الاستجابة المناسبة عنده ، عن طريق المحافظة على انتباهه ، ومتابعته للنص ، لخلوه ما يقطع عليه هذه المتابعة ، ويعكر صفو انتباهه ، ولا يكون النص كذلك إلا إذا خلا من تفكك أجزائه ، ومن حشد المعاني المتعددة ، وعرض النبضات الشعورية المختلفة ".(٢)

---

(١) ينظر : القطع والاستئناف – أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس صـ ٤٦٧ – ٤٦٨ – المحقق: كتور. عبد الرحمن المطرودي – ط: دار عالم الكتب – المملكة العربية السعودية –: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

(٢) ينظر : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية – د / مجيد عبد الحميد ناجي : صـ ٨٩، طبعة المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر – الأولى – ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .

وعلى هذا : فإن المتأمل في نسق هذه الآيــة يجــد أن اســم الله " الواسع " هو المحور السياقي للآية من أول لفظة فيها إلى نهايتها .

ففي تلك الآية وما تحتويه من جمل استئنافية متنوعة نجد اكتمــال عناصر الوحدة العضوية الثلاثة للنص : من براعة للاستهلال المتمثل فــي قوله تعالى﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ ﴾ وحسن تخلــص مــن الأمر إلى نتيجته في قوله جل وعــز: ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ، ثــم حسن الخاتمة بذكر العلة التفسيرية لما احتواه النص القرآنــي وذلــك فــي قوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فهذا عرض لمقامات مختلفة دون أن يشعر القارئ للآية بالتخلص من السابق إلى اللاحق ، ووقف على حلاوة معناه كوقوفــه على طلاوة ألفاظه ، وتلك آية البلاغة، وصورة من صور الإعجاز المحكم .

الموضع الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (١)

هذه الآية ختام آيات دار الحديث فيها حول شأن مهــم مــن شــئون الأسرة يمكن حدوثها في أحوال، الناس وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾(٢)

---

(١) سورة النساء : آية : ١٣٠.

(٢) سورة النساء : آية : ١٢٨ – ١٣٠.

طبيعي أن تكثر الآيات التي تتحدث عن شئون الأسرة فإنهـا قـوام المجتمع ومرتبطة بأحوال الناس في غدوهم ورواحهم وصباحهم ومسائهم ، وما أكثر المشاكل التي تنشأ في أحوال الزواج، والعشرة الزوجية، والطلاق وما إلى ذلك من النفقات، والظهار، والإيلاء، والخلع، واللعـان، وغيرهـا ، وقد حفلت كتب التفسير ببيان هذه الأحكام وذكرت أسباب نزولهـا ، وهـي بالطبع تناولت شخصا أو أشخاصا فيجب أن يعرفهم المفسر ليكشف الإبهـام في الآية، ويحيط بالواقع الذي نزلت فيه الآية أو الآيات، وسـيظل سـياق الآيات مع هذا عاما يشمل الأحياء في كل زمان ومكان ، فان العبرة بعمـوم اللفظ لا بخصوص السبب.

عَنْ عَائِشَةَ[(١)] ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ قَالَتْ: " هِـيَ المَرْأَةُ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ لاَ يَسْتَكْثِرُ مِنْهَا، فَيُرِيدُ طَلاَقَهَا وَيَتَزَوَّجُ غَيْرَهَا، تَقُولُ لَهُ: أَمْسِكْنِي وَلاَ تُطَلِّقْنِي، ثُمَّ تَزَوَّجْ غَيْرِي، فَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِـنَ النَّفَقَـةِ عَلَـيَّ وَالقِسْمَةِ لِي، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾.[(٢)]

---

(١) هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق الصديقة بنت الصديق ، زوج النبي ــ ﷺ ــ وأشهر نسائه، وروت عن النبي ــ ﷺ ــ كثيرا، وتوفيت سنة سبع وخمسين، ،[ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة : أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين ابن الأثير :٧ / ١٨٦ – تحقيق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود – الناشر: دار الكتب العلميـة – الأولى: ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م]

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ــ ﷺ ــ وسننه وأيامه = صـحيح البخاري – محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي– كتاب النكـاح – بَـابُ ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ عن عائشة رقم (٥٢٠٦) المحقق: محمد زهير بـن ناصر الناصر– الناشر: دار طوق النجاة – الأولى، ١٤٢٢هـ .

وروي أَنَّ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ (١) ، قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ قَالَ: كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ قَدْ خَلَا مِنْ سِنِّهَا ، فَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا شَابَّةً ، فَآثَرَ الشَّابَّةَ عَلَيْهَا ، فَأَبَتِ امْرَأَتُهُ الْأُولَى أَنْ تُقِرَّ عَلَى ذَلِكَ ، فَطَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً ، حَتَّى إِذَا بَقِيَ مِنْ أَجَلِهَا يَسِيرٌ قَالَ: «إِنْ شِئْتِ رَاجَعْتُكِ وَصَبَرْتِ عَلَى الْأَثَرَةِ ، وَإِنْ شِئْتِ تَرَكْتُكِ حَتَّى يَخْلُوَ أَجَلُكِ»، قَالَتْ: بَلْ رَاجِعْنِي ، وَأَصْبِرُ عَلَى الْأَثَرَةِ، فَرَاجَعَهَا وَآثَرَ الشَّابَّةَ عَلَيْهَا ، فَلَمْ تَصْبِرْ عَلَى الْأَثَرَةِ ، فَطَلَّقَهَا وَآثَرَ الشَّابَّةَ عَلَيْهَا،حَتَّى إِذَا بَقِيَ مِنْ أَجَلِهَا يَسِيرٌ قَالَ لَهَا مِثْلَ قَوْلِهِ الْأَوَّلِ ، فَقَالَتْ: رَاجِعْنِي، وَأَصْبِرُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: الصُّلْحُ الَّذِي بَلَغَنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ فِيهِ:﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ (٢)

وقد كثرت الروايات حول سبب نزول تلك الآيات مما يجعل من السياق القرآني آية من البلاغة والبيان حين اصطفى اسم الله " الواسع " خبرا مسندا إلى لفظ الجلالة حاملا جميع صفات الجمال والجلال، فقد استدعاه المعنى وطلبه المقام ، فالشعور الغالب بين الرجل والمرأة ، والمسيطر على الجو العام للآيات هو ضيق النفس المسبب لوقوع خوف في قلب امرأة تقدم بها السن، والبغض في قلب رجل نتج عنه نشوز وإعراض عنها، فالمشاعر تتغير، والقلوب تتبدل، ومن ثم ناسب أن يكون ختام تلك الومضة الخافتة متمثلة في بث الطمأنينة في قلوب الطرفين، والانطلاق بها

(١) رافع بْن خديج بْن رافع بْن عدي ، يكنى أبا عَبْد اللَّهِ، كان قد عرض نفسه يَوْم بدر، فرده رَسُول اللَّهِ ــ ﷺ ــ ، وأجازه يَوْم أحد، ،.مات سنة أربع وسبعين، وهو ابن ست وثمانين سنة،.[ينظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة : ٢ / ٢٣٢].

(٢) المستدرك على الصحيحين – أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري– كتاب التفاسير – باب تفسير سورة النساء – تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت –: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠.

من حيز الضيق الشعوري، إلى دائرة الاتساع الذي لا يحده حد، ولا يقف على وصفه بليغ ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾.

وبتأمل يسير، ومعايشة قرآنية مع آي الذكر الحكيم، نجد أن الإسلام الذي هو منهج حياة، يرسم للمسلم طريقه في كل أحوال حياته، في نطاق المبادئ والاتجاهات العامة لهذا الدين الحنيف، فكما أنه عالج نشوز المرأة وإعراضها عن زوجها والإجراءات التي تتخذ للمحافظة على كيان البيت المسلم في قوله تعالى:﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (١)، نراه في تلك الآيات يعالج حالة نشوز الرجل نفسه، وإعراضه عن زوجه، وما يترتب عليه من أضرار، بأن تصبح المرأة مجفوة، ويؤدي هذا الجفاء القلبي إلى البعد، ثم إلى تفرقة بالطلاق، أو الإعراض عنها وجعلها كالمعلقة، ومن ثم تخاف المرأة على سلامتها وكرامتها واستقرار أسرتها.

والحق أن الشعور الداخلي المتملك على نفس كل من الرجل والمرأة قد رسمته الآيات الكريمة ظاهرا، ويمكن الوقوف عليه لفظا من خلال ألفاظها الخدمة لمعانيها .

فدخول " إن " الموضوعة للشرط على الاسم ظاهراً على خلاف الأصل في قوله : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ ﴾ ، والأصل فيها أن تدخل على فعلين مضارعين ، الأول فعل الشرط ، والثاني هو الجزاء ، وهذا هو الأصل فيها

(١) سورة النساء : آية : ٣٤

وفي أدوات الشرط ، وهو الكثير(١) ، وهذا مطابق للحال الحاكمة بين الرجل والمرأة والتي جاءت على خلاف الأصل الذي رسمه الله تعالى للغاية من الزواج القائم على السكن والمودة والرحمة المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)، فعبر بما هو على خلاف الأصل اللغوي لفظا، لمناسبة ما جاء مخالفا للأصل الفطري معنى، وإنما جاز ذلك في "إن"؛ لأَنَّها أَشَدُّ حروف الجزاء تمكنا. وإنَّما حسن هذا فيها إذا لم يكن لفظ ما وقعت عليه جزما، وكذلك ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ ﴾(٣)،﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٤)، محمول على إضمار فعل. (٥)، فالكلام على تقدير فعل فـ{امْرَأَةٌ}: فاعل بفعل محذوف وجوبًا يفسره المذكور بعده، تقديره: وإن خافت امرأة من بعلها نشوزًا، و﴿خَافَتْ ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿وَإِنِ ﴾ على كونه فعل شرط لها، و﴿ٱمْرَأَةٌ ﴾: فاعل، و﴿خَافَتْ ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱمْرَأَةٌ ﴾ والجملة مفسرة للمحذوف لا محل لها من الإعراب، والكلام

---

(١) ويجوز أن تدخل على ماضيين فلا تؤثر فيهما لبنائهما، وهما في المعنى مستقبلان، ويجوز أن تدخل على ماض ومضارع فيبقى الماضي مبنيا، ويكون المضارع إذ ذاك مرفوعا فلا تؤثر فيه ، إذا لم تؤثر في الذي يليها [ينظر : رصف المباني في شرح حروف المعاني للإمام أحمد بن عبد النور المالقي – ص ١٠٤، تحقيق : أحمد محمد الخراط – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق]

(٢) سورة الروم :آية : ٢١ .

(٣) سورة النساء : آية : ١٧٦

(٤) سورة التوبة : آية : ٦

(٥) القرآن المنسوب لعلي بن الحسين بن علي، أبو الحسن نور الدين جامع العلوم الأَصْفهاني الباقولي الزجاج :١ /٣٨٤ – تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري – ودار الكتب اللبنانية – بيروت – الطبعة: الرابعة – ١٤٢٠ هـ.

على هذا التقدير يجعل المعنى مكررا بتكرار الجمل يصور ذلك الشعور الداخلي لدى المرأة وحالة القلق والتوتر الناتج من هذا النشوز والإعراض ، فكأن الألفاظ ناطقة كاشفة لذلك المعنى الخفي بداخل المرأة حفاظا على كرامتها وإنسانيتها، وتمسكا منها على استقرار شأن أسرتها، فقد طابقت الألفاظ من حيث هيئتها ومادتها تلك الحالة الشعورية لدى المرأة، في أسلوب تعجز الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

ثم تزداد صورة تلك الحالة الشعورية من الضيق وضوحا باصطفاء تلك المفردات (امرأة – خافت – بعلها – نشوزا – إعراضا) وما تحمله من معان دلالية تشير إلى النفور الظاهر وسببه بين الطرفين، فعبر بالمرأة دون الزوجة في قوله: ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا ﴾ ، دلالة على تعطل أسباب الألفة بين الزوجين ، مما أحدث نفورا وإعراضا، وهو نسق قرآني في التعبير عن الزوجة بالمرأة في مثل ذلك، " فإن القرآن يستعملها في المواضع التي تفقد فيها الحياة الزوجية بعض مقوِّماتها، سواء أكان ذلك من جانب الرجل، أو من جانب المرأة، ويؤثر كلمة " الزوج " متى استقامت تلك الحياة، وكذلك إذا انفصمت عرى الزوجية بموت وما أشبه الموت"(١)، كما

(١) أو أن يكون الاختلاف في الدين هو السبب الداعي إلى عدم اعتبار الحياة الزوجية قائمة من كل الوجوه كامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾، التحريم ١٠، أو أن يكون العُقم هو الملاحَظ في الحديث ، مثل قوله تعالى على لسان زكريا – عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ مريم :٨ ، فلما زال السبب عاد التعبير إلى ما وضع له أصلا في قوله : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ ﴾ الأنبياء : ٩٠[خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : صـ ٢٩١]

أن التعبير عن هذا الشعور الداخلي لدى المرأة في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾ يعكس الحالة المزاجية المضطربة لدى المرأة ، فهو لم يصارحها ، بالنشوز والإعراض، وإنما توقعت ما تكره بوقوع بعض أسبابه، أو ظهور بعض أماراته، " فالخوف هنا على بابه، وهو حالة تحدث في القلب عند حدوث أمر مكروه، أو عند ظن حدوثه، وقيل: المراد بالخوف هنا العلم" (١).

كما أن التعبير بالبعولة وما تحمله من معنى السيادة والملك والتحكم للرجل على المرأة ، ما يزيد في رسم الشعور بالضيق لديها ، إذ أن أمرها ليس بيديها ، فالبعل اسم زوج المرأة. وأصل البعل في كلامهم، السيد. وهو كلمة سامية قديمة، وسمي به الزوج لأنه ملك أمر عصمة زوجه، ولأن الزوج كان يعتبر مالكا للمرأة وسيدا لها، فكان حقيقا بهذا الاسم، ثم لما ارتقى نظام العائلة من عهد إبراهيم عليه السلام فما بعده من الشرائع، أخذ معنى الملك في الزوجية يضعف، فأطلق العرب لفظ الزوج على كل من الرجل والمرأة، اللذين بينهما عصمة نكاح. (٢)

و قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، وأن يؤذيها بسب أو ضرب والإعراض: أن يعرض عنها بأن يقل محادثتها

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن- العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي: ٦ / ٤١٢ - مراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي – ط : دار طوق النجاة، بيروت – لبنان- : الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٢) وهو إطلاق عادل لأن الزوج هو الذي يُثَنِّي الفرد، فصارا سواء في الاسم، وقد عبر القرآن بهذا الاسم في أغلب المواضع، غير التي حكي فيها أحوال الأمم الماضية كقوله:{وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا } (هود :٧٣)، وغير المواضع التي أشار فيها إلى التذكير بما للزوج من سيادة [التحرير والتنوير : ٢ / ٣٩٣] .

ومؤانستها، وذلك لتقدم في السن، أو شيء في خَلق أو خُلق ، أو غير ذلك، وآثر التعبير بالمصدر ﴿ نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ لغرض تأكيد على الأمر والمبالغة في الوصف ، ليكشف الحالة النفسية لدى الطرفين متحققة في نفور الرجل وإعراضه مبالغا في إظهار ذلك ، والضيق والحزن عند المرأة حتى ضاقت به زرعا ، ولا شك أن مثل هذه الحالة تجعل البيت المسلم في حالة من الاضطراب النفسي ، والبعد المجتمعي مما تضيع معه أركان الأسرة ، فتفسد بعد صلاح ، وتضعف بعد قوة ، ومن ثم عالج القرآن كل ذلك بحكمة بالغة قائمة على سعة فضل الله ، مبنية على عطائه الدائم ، وكان هذا العلاج في صورتين :

الصورة الأولى : قائمة على التصالح بين الزوجين ، والتعايش القائم على البذل من الجانبين، في قوله تعالى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾، تأمل تلك التعبيرات المثيرة التي تصيب الهدف، وترقق العاطفة، وتدعوا إلى الإصلاح ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ﴾لا بأس ، رفع الحرج في الصلح على أي حالة حفاظا على قوام الأسرة وبنيانها، ﴿ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ ﴾، "بجميع أنواعه من بذل من الزوج لها على أن تصبر، أو بذل منها له على أن يؤثرها وعن أن يؤثر وتتمسك بالعصمة، أو على صبر على الأثرة ونحو ذلك، فهذا كله مباح" (١) .

(١) البحر المحيط في التفسير – أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي :٨٦/٤ – ت: صدقي محمد جميل– ط: دار الفكر – بيروت : ١٤٢٠ هـ

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾وهي جملة اعتراضية ليس الغرض منها تفضيل شيء على شيء ، فهذا لا يستقيم لعدم وجود طرفين مشتركين في صفة واحدة ولكنه صفة مشبهة، وزنه فعل، فليس ثمت مزية في تفضيل الصلح عن النشوز والإعراض لعدم وجود جامع بينهما ، وقد دلت الآية على شدة الترغيب في هذا الصلح بمؤكدات ثلاثة: وهي المصدر المؤكد في قوله: صلحا، والإظهار في مقام الإضمار في قوله﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾، والإخبار عنه بالمصدر أو بالصفة المشبهة فإنها تدل على فعل سجية.(١)

وقوله تعالى:﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ جملة اعتراضية احتراسية ترفع الحرج عن الطرفين، فهي إخبار منه سبحانه بأن الشح في كل منهما، بل في كل الأنفس الإنسانية كائن، وأنه جعل كأنه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال وأن ذلك بحكم الجبلة والطبيعة، فالرجل يشح بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة وحسن النفقة ونحوها، والمرأة تشح على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج، فلا تترك له شيئا منها. وشح الأنفس:بخلها بما يلزمها أو يحسن فعله بوجه من الوجوه" (٢)، وكان هذا التعقيب تنفيرا من العوارض المانعة من السماحة والصلح، ولذلك ذيل بقوله: وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا لما فيه من الترغيب في الإحسان والتقوى. (٣)، ثم تأتي الآية الجامعة بين الترغيب في الإحسان والترهيب

---

(١) التحرير والتحبير : ٥ / ٢١٧ .

(٢) فتح القدير – محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني :٦٠١/١ – الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ ، وينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٣ : ٢٦٥ .

(٣) التحرير والتحبير : ٥ / ٢١٧ ، ٢١٨ .

من عدم العدل بين الزوجات في قوله ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾، فهو اعذار مسبق من رب العباد لمن يقع في تلك الحالة من الميل وعدم العدل والمعنى: " محال أن تستطيعوا العدل بَيْنَ النِّساءِ والتسوية حتى لا يقع ميل البتة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، فرفع لذلك عنكم تمام العدل وغايته، وما كلفتم منه إلا ما تستطيعون بشرط أن تبذلوا فيه وسعكم وطاقتكم لأنّ تكليف ما لا يستطاع داخل في حدّ الظلم ... وقيل: معناه أن تعدلوا في المحبة " . (١)

وبالنظر إلى الصورة الأولى للعلاج نرى أن النظم القرآني اصطفى من الجمل ما تنهض بالهمم ، وتستجلب العواطف ، وترقق القلوب بكل ما فيه دعوة للصلاح والإصلاح إغراءً وتحذيراً ، فتكررت ألفاظ الصلح ، والإحسان ، والتقوى مما يدعو إلى التفكر والتدبر لكل ما فيه نفع ، ومصلحة للجميع، وإلا كان العلاج الثاني " التفرقة " ، وكلاهما مباح .

أما الصورة الثانية من العلاج فهي التفرقة بين الطرفين ، إذا تعذر الصلح، ورأب القلم، ورتق الفتق، لم يبق إلا التفريق بينهما، حفاظا على ما تبقى من الود والتراحم، ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ " تسلية لكل واحد منهما عن الآخر وأن كل واحد منهما سيغنيه الله عن الآخر إذا قصدا الفرقة، تخوفا من ترك حقوق الله التي أوجبها؛ وأخبر أن رزق العباد كلهم على الله وأن ما يجريه منه على أيدي عباده فهو المسبب له والمستحق للحمد عليه" . (٢)

---

(١) تفسير الكشاف – للزمخشري : ١ / ٥٧٣ .
(٢) أحكام القرآن – للجصاص : ٢/ ٣٥٦.

وهذه الجملة الشرطية جاءت دفعا لتوهم قد يقع في قلب المرأة التي قابلت نشوزا وإعراضا من زوجها وبث الطمأنينة إلى قلبها " فإنها وإن توهمت أنه إذا فارقها زوجها المنفق عليها القائم بمؤنتها ينقطع عنها الرزق، فسوف يغنيها الله من فضله، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره، بل على المتكفل القائم بأرزاق الخليقة كلها، وخصوصا من تعلق قلبه به ورجاه رجاء قلبيا طامعا في فضله كل وقت، فإن الله عند ظن عبده به، ولعل الله يرزقها زوجا خيرا لها منه وأنفع " (١)

والمعنى : وإن يتفرق الزوجان اللذان يخافان ألا يقيما حدود الله، بأن كره الرجل امرأته لدمامتها أو كبرها وأراد أن يتزوج غيرها أو كان عنده زوجان ولم يقدر على العدل بينهما، يغن الله كلا منهما عن صاحبه بسعة فضله ووافر إحسانه وجوده، فقد يسخّر للمرأة رجلا خيرا منه، كما يهيء له امرأة أخرى تحصنه وترضيه وتقوم بشؤون بيته وأولاده، ولن يكون كل منهما جديرا بعناية الله وإغنائه عن الآخر، إلا إذا التزما حدود الله، بأن اجتهدا فى الوفاق والصلح وظهر لهما بعد التفكير والتروّى فى الأسباب أنه غير مستطاع، فافترقا وهما حافظان لكرامتهما عما يجعلهما عرضة للنقد ونهش العرض، فإن ذلك مما يرغب الناس فيهما، لما يرونه فيهما من الأخلاق الفاضلة وعدم التلاحي والتنابذ والتهاجى واختلاق الأكاذيب، فالرجل ذو الخلق الكريم إذا علم أن امرأة اختلفت مع بعلها لأنها لم تقبل أن تعيش مع من يعرض عنها أو يترفع عليها بل أحبت أن تعيش معه بطريق عادلة- رأى فيها أفضل صفات الزوجية ، وكذلك كرائم النساء وأولياؤهن يرغبون

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن- عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي: ١٤٣، ط: وزارة الشئون الإسلامية - السعودية- الأولى، ١٤٢٢هـ

فى الرجل إذا علموا أنه يمسك المرأة بمعروف أو يسرحها بإحسان ولا يلجئه إلى الطلاق إلا الخوف من عدم إقامة حدود الله (١) ، وصورة التفريق أن الزوج إذا قال للمرأة: قد طلقتك على كذا وكذا، فقالت المرأة: قد قبلت، فقد بانت، وتفرقا بذلك القول ، وإن لم يتفرقا بأبدانهما. (٢)

فالاتفاق واقع بين الطرفين ، وهذا متحقق في قراءة : { وإن يتفارقا}(٣) بألف المفاعلة، أي وإن يفارق كل منهما صاحبه ، وهذه الآية نظير قوله تعالى﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾(٤) ، وقول العرب: إن لم يكن وفاق فطلاق.(٥)، فنبه تعالى على أن لهما أن يتفارقا، كما أن لهما أن يصطلحا، ودل ذلك على الجواز(٦)، فإذا تلاقت الإرادتان واتفقا على الافتراق كان الافتراق منطقياً والطلاق أمراً مستقيماً، وكل محاولة لعرقلة ذلك تكون ضد الفكر المستقيم، واعوجاجاً في الأمر، بيد أنه لابد من تحقق أن ذلك كان لاستحكام النفرة من كل الوجوه بتحكيم لحكمين، ومحاولة الصلح، ثم بالقيود التي قيد القرآن بها الطلاق، تلك هي القاعدة العامة في العقود اللازمة فإنها تفسخ بتراضيهما كما تنشأ بتراضيهما، ولكن الشرائع التي حرمت الطلاق لا

---

(١) تفسير المراغي – أحمد بن مصطفى المراغي : ٥/ ١٧٤- ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر : الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

(٢) شرح معاني الآثار لأبي جعفر أحمد بن محمد الأزدي المعروف بالطحاوي : ٤ / ١٣- حققه: محمد زهري النجار وغيره، ط: عالم الكتب: الأولى - ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م .

(٣) البحر المحيط في التفسير : ٤ / ٩٠ .

(٤) سورة البقرة : آية : ٢٢٩

(٥) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار-: ص ٣٠٣ .

(٦) البحر المحيط في التفسير : ٤ / ٩٠ .

تلتفت إلى هذه القاعدة، ولو أكلت البغضاء قلب الزوجين وحلت الشحناء محل الوداد،(١) .

واصطفاء اللفظ الدال على المشاركة ﴿يَتَفَرَّقَا﴾، أو قراءة يتفارقا "بألف المفاعلة" حفظاً لكرامة المرأة ورفعةً لشأنها، حيث جُعل قرار الطلاق غير مقتصر على الرجل وحده، وإنما طلبته المرأة وارتضاه الرجل، فالمشاركة من الطرفين ظاهرة، كأنهم اتفقا على ذلك، كما أنه جوز لهم الاتفاق على التصالح قبل ذلك، فالمشاركة قائمة، والحوار الهادي قائم بين الطرفين دون سباب أو ملاعنة، أو انتقاص من حق الآخر، وتلك الحالة من باب المنع عين العطاء، فقد تطلب الأمر ظاهرا الحرمان والمنع، إلا أن نتيجته المرجوة عطاء وسعة "فإذا منع الله عباده المؤمنين شيئاً تتعلق به إرادتهم، فتح لهم باباً أنفع لهم منه وأسهل وأولى وهذا من لطفه،... وفي هذا المعنى آيات كثيرة "(٢).

ثم ذيل الله تعالى هذه المعاني بقوله جل وعلا : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ وهي جملة مستأنفة، وقعت فاصلة لتلك الآية ، وجاءت حاملة للتعليل والتفسير لما سبقها من كلام، وما وقع فيها من وعود وأحكام،

---

(١) شريعة القرآن من دلائل إعجازه- محمد بن أحمد المعروف بأبي زهرة – صـ ٣٤ – الناشر: دار العروبة – القاهرة – عام النشر: ١٣٨١ هـ – ١٩٦١

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾ [النساء: ٣٢] ، فنهاهم عن تمني ما ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان الحال[ينظر : القواعد الحسان لتفسير القرآن عبد الرحمن آل سعدي : صـ ١٢٤ – الناشر: مكتبة الرشد، الرياض- الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م].

تحقيقا لدلالة المنطوق الأول ومفهومه، فكانت معه كالدليل، وظهر المعنى عند من لا يفهم ، واكتمل عند من فهمه، فـ "للتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتضاحا،... وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة، لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عنه الذهن اللقن، وصح للكليل البليد" (١)

****

(١) ينظر : كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري – صـ ٣٧٣، ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط: المكتبة العنصرية بيروت، ١٤١٩ هـ .

وقفة مع النظم القرآني في الموضعين

بعد الوقوف على هذين الموضعين الواقع فيهما اسم الله " الواسع " نلحظ توافقا لفظيا بين هذين الموضعين، وتشابها أسلوبيا بين المعنيين ، متمثل فيما يلي :

ـ التمكين والتمهيد الحاصلان في الآيتين الواقعان قبل الفاصلة القرآنية، في قوله تعالى في آية النكاح: { إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، وقوله في آيات المصالحة أو المفارقة {وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كَلًا مِنْ سَعَتِهِ}، والتمكين: وهو ختم الآية بما يناسب أولها في المعنى، وذلك بأن يمهد ما قبل الفاصلة للإتيان بها ممكنة في مكانها مستقرة غير نافرة، ولا قلقة، متعلقا معناها بالسياق، بحيث لو طرحت الفاصلة لاختل النظم، ونقص المعنى المراد، ففائدة التمكين التقرير والتوكيد واستحكام النظم(١) وهاتان الجملتان قد مهدتا للفاصلة القرآنية تمهيدا بديعا، فَتَعَلَّقَ معناها بالسياق، بحيث لو اكتفي بتلك الجملة لانتظر المخاطب إلى كلام متمم له فكانت الفاصلة بما تحمله من معنى السعة والعلم أو الحكمة تعليلا وتفسيرا لما تحمله تلك الجمل الممهدة من معنى، زيادة في التقرير والتمكين، وتماسك في النظم القرآني المبدع، وبحيث إن سُكِتَ عنها لاستطاع السامع أن يكملها بطبعه ، ولو سمعها غير موافقة لما قبلها لوقف على الصحيح فيها (٢)، وتلك هي بلاغة النظم القرآني العالية .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي :٣ /٣٤٦- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم- الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

(٢) ومنه ما حُكِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ {فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ} " فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " وَلَمْ يَكُنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَقَالَ: إِنْ كَانَ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ فلا يقول كذا ومر بهما رجل فقال: كيف تقرأ هذه الآية فقال الرجل {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فقال هكذا ينبغي، الْحَكِيمُ لَا يَذْكُرُ الْغُفْرَانَ عِنْدَ الزَّلَلِ لِأَنَّهُ إِغْرَاءٌ عَلَيْهِ [السابق : ٣/٣٤٧].

ـ مجيء الجمل التمهيدية في الموضعين في صورة الشرط الموجب لمعنى الإلزام ، في قوله تعالى في آية النكاح:{ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّـهُ مِنْ فَضْلِهِ}، وقوله في آيات المصالحة أو المفارقة {وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ}، والسياق الشرطي إلزام الشيء والالتزام به بمعنى تحقق الجواب موقوف على تحقق الفعل، ومثل هذا يذهب بالكلام إلى معنى الطلب حسب المعنى المراد أمرا أو نهيا، زيادة عما في هذا السياق الشرطي من ترابط وتلاحم بين أجزاء الكلام في النظم القرآني المبدع لارتباط فعل الشرط بجوابه ارتباطا وثيقا، ما يجعل المعنى مطلوبا في ذاته، مشوقا لمعرفته، منطوقا بمعناه قبل لفظه، ومن ثم يصل للقلب ويركز في النفس دخول المأنوس، فيشمر عن ساعد الجد، ويشتد الحرص، ويقع الامتثال للأمر أو النهي، وبيان ما ينبغي عليه المخاطب من إلزام نفسه في الحالتين المختلفتين وفق أوامر الله ونواهيه، تحببا في النكاح في الآية الأولى، وإن لم يكن موجودا سببه ودواعيه الظاهرة، وترغيبا في التفرقة إن حالت المعاشرة، وإن كان على خلاف الأصل الفطري التي فطر الله النفس الإنسانية عليها، وذلك من حسن في اللفظ، ومزية في النظم لمجيء الأسلوب بحَسبِ المعنى الذي تُريدُ والغرض الذي تؤُمُّ، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني :" ثم اعْلَمْ أنْ ليستِ المزيةُ بواجبةٍ لها في أنْفُسِها، ومِنْ حيثُ هي على الإطلاق، ولكنْ تعرضُ بسببِ المعاني والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ، ثم بحَسَبِ موقعِ بعضِها من بعضٍ، واستعمالِ بعضِها معَ بعضٍ."(١)

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني للشيخ عبد القاهر الجرجاني: ٨٧ – المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر– مطبعة المدني بالقاهرة الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

ـ اتحاد جواب الشرط في الآيتين لفظا ومعنى باختيار التعبير بالفعل المضارع (يُغْنِ) الدال على الكفاية وعدم الحاجة للغير، وجيء به بثا للطمأنينة في النفس التي قد يقع في داخلها نوع من الخوف على مستقبل آت فجاء الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار دفعا لخوف يقع من الزوج بسبب فقر زوجته في آية النكاح ، ودفعا لقلق واضطراب قد يقع في قلب الزوجة بسبب المفارقة والبعد عمن هو سبب في الإنفاق عليها ظاهرا، فعطاء الله مأمول في كل حال، فالله تَعَالَى وعد الْغنى بِالنِّكَاحِ، ووعد الْغنى بالتفرق.

وفي اختيار التعبير بالغنى دون الجدة واليسر؛ مبالغة في بث الطمأنينة، ونزع فتيل القلق والاضطراب من الطرفين " فالْجدّة كَثْرَة المَال فَقَط يُقَال رجل وَاجِد أي كثير المَال والغنى يكون بِالْمَالِ وَغَيره من الْقُوَّة والمعونة وَلَك مَا يُنَافِي الْحَاجة وَقد غَنِي يغنى غنى وَاسْتغْنى طلب الْغنى ثمَّ كثر حَتَّى اسْتعْمل بِمَعْنى غَنِي والغناء ممدودا من الصَّوْت لإمتاعه النَّفس كإمتاع الْغنى والمغاني والمغاني الْمنَازل للاستغناء بهَا فِي نُزُولهَا والغانية الْجَارِيَة لاستغنائها بجمالها عَن الزِّينَة ، وَأما الْيَسَار فَهُوَ الْمِقْدَار الَّذِي تيَسّر مَعَه الْمَطْلُوب من المعاش فَلَيْسَ ينبىء عَن الْكَثْرَة أَلا ترى أَنَّك تَقول فلَان تَاجر مُوسَى وَلَا تَقول ملك مُوسر لِأَن أَكثر مَا يملكهُ التَّاجِر قَلِيل فِي جنب مَا يملكهُ الْملك""[١]"

(١) الفروق اللغوية : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري : صـ ١٧٥، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم – الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

فلغة القرآن لا تقر الترادف بمعناه العام ، وإنما تحتفظ به لكل لفظة منه بمقامها الخاص ، ومعناها المميز ، الأمر الذي يجعل من ألفاظه – مهما ترادفت وتقاربت – ذوات مستقلة لا تتماثل، ولا تتكرر ، ولا تتبادل مواضعها في الدلالة والسياق"[١]" .

ـ تنوع القيد في جملتي الجواب في الآيتين بين الفضل والسعة، حسب تنوع السياق ومقتضى الحال، فاختيار التعبير بالفضل حال الترغيب في النكاح؛ لكون الطلب إلى المال فيه أظهر، والحاجة إلى الإنفاق أشد، والبحث عن الغنى أقوى، فطمأنه بالعطاء من فضله الذي لا يحد، ومن عطائه الذي لا ينقطع، فناسب التعبير بالفضل فقال:{ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، أما في حال التفرقة لما كان الطلب فيه يقتضي أمورا متعددة، وأرزاقا متنوعة ، كالزواج من آخر، والمال الذي ينفقه، والسكن الذي يأوي كل منهما، ناسب التعبير بالسعة الدالة على كثرة العطاء وتنوعه فقال : {وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ} ، فعطاء الله مأمول في كل حال " فعَن الْحسن بن عَليّ – رَضِي الله عَنْهُمَا – أَنه كَانَ ينْكح وَيُطلق كثيرا، وَيَقُول: إِنَّمَا أَبْتَغِي الْغنى من النِّكَاح وَالطَّلَاق، وَيَتْلُو هَاتين الْآيَتَيْنِ" "[٢]" .

ـ التعبير باسم الله الظاهر مع وجود مسوغ للتعبير بالضمير لما في الاسم الظاهر من معان الجمال والجلال في وقت واحد وهذا ما لا يوجد في

---

(١) ينظر : أسرار الترادف في القرآن الكريم – د/ علي اليمني دردير صـ ٢٣ طبعة : دار ابن حنظل سنة ١٩٨٥م .

(٢) تفسير القرآن : لأبي المظفر، منصور بن محمد السمعاني : ٢ / ٥٢٦ – المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم– الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية– الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م

التعبير بالضمير ، ومعنى الجمال يتناسب وما في الآيات من الرحمة والرأفة بين الزوج والزوجة حال النكاح حال الفراق ، كما أن فيه صفات الجلال تعنيفا وترهيبا وزجرا لمن تسول له نفسه منهما البعد عن المنهج القويم الذي رسمه الإسلام لأتباعه في حالتي النكاح والتفريق .

ــ مجيء اسم الله الواسع مجردا من الإضافة، "وما أضافه إلى شيء معين دل على أنه واسع في جميع الكمالات، وتحقيقه في العقل أن الموجود إما واجب لذاته، وإما ممكن لذاته، والواجب لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى، وما سواه ممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الله الواجب لذاته، وإذا كان كذلك كان كل ما سواه من الموجودات فإنما يوجد بإيجاده وتكوينه، فلزم من هذا كونه واسع العلم والقدرة والحكمة، والرحمة، والفضل والجود، والكرم""[1]" .

****

(١) ينظر : تفسير مفاتيح الغيب – التفسير الكبير : ١١ / ٢٣٨ .

المبحث الثاني

أثر السياق في اصطفاء التعبير باسم اللّه " الواسع "
في مقام الحث على الإنفاق

من فضل الله – تعالى – على عباده ، ورحمته بهم ، أن شرع لهم من الدين ما يقربهم إليه، ويوصلهم إلى مرضاته ، ويكون سببا في مضاعفة الثواب ، والفوز بالجنة ، وحثهم على المسارعة إلى الخيرات، والإنفاق مما جعلهم الله مستخلفين فيه، تزكية للنفس، وتطهيرا للبدن، وتنمية حقيقية للمال، وهذا من سعة فضل الله تعالى، وهذا ما وضحته آيات القرآن الكريم في سياق يبعث على التشوق والترقب ، ممزوجان بسرعة الإجابة، وطلب مضاعفة الثواب، لعلمهم العقدي بأن الله الواسع، ومن سعة فضله يجازي على الخير فضلا وإحسانا ، ووعده سبحانه مُنْجَزٌ ، وثوابه ثابت للمرء لا محالة، وقد بين – تعالى – تلك المضاعفة أتم بيان وأوضحها أكمل إيضاح، وكان لاسم الله الواسع في نهاية الآيات دلالة خاصة تؤكد ما تحمله ألفاظها وتراكيبها من معنى عطاء الله الواسع

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

التعبير بأسماء الله الحسنى في آي الذكر الحكيم يكسب المعنى تأكيداً وتقريرا، لاسيما الآيات التي تحمل معنى الجلال والجمال، وتزداد أهمية التعبير باسم من أسمائه الحسنى وصفاته العلي إذا وقعت فاصلة لتلك

(١) سورة البقرة : آية : ٢٦١ .

الآيات، لأنها تأتي حاملة المعنى الإجمالي للآية، كاشفة عظمه وأهميته، نصحاً وإرشاداً ، ترغيبا وترهيبا .

وتكمن البلاغة القرآنية فيما تحتويه الآية من دلالات تركيبية ظاهرة ، وأساليب تتلاءم مع الظروف المحيطة بالنص القرآني المعجز، وأثرها على السياق بصفة عامة، وعلاقة فاصلتها بمقاصدها وأهدافها، فكما أنها دالة على الأجر المتضاعف، والثواب المتعاظم، فإنها – أيضا – كريمة العطاءات البلاغية، كثيرة الدلالات المتعاظمة ، الكاشفة لأبعاد المعاني المقصودة في صورة من الإقناع القائم على الإمتاع .

ورابط الآية بما قبلها أنه لما أجمل صورة المضاعفة في قوله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾(١)، فصَّل في هذه الآية تلك المضاعفة الثوابية التي لا نهاية لها، " وإنما ذكر بين الآيتين الأدلة على قدرته بالإحياء والإماتة من حيث لولا ذلك لم يحسن التكليف بالإنفاق، لأنه لولا وجود الإله المثيب المعاقب، لكان الإنفاق في سائر الطاعات عبثا، فكأنه تعالى قال لمن رغبه في الإنفاق قد عرفت أني خلقتك وأكملت نعمتي عليك بالإحياء والإقدار وقد علمت قدرتي على المجازاة والإثابة، فليكن علمك بهذه الأحوال داعيا إلى إنفاق المال، فإنه يجازي القليل بالكثير، ثم ضرب لذلك الكثير مثلا، وهو أن من بذر حبة أخرجت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فصارت الواحدة سبعمائة"(٢).

---

(١) سورة البقرة : آية : ٢٤٥ .

(٢) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير – لفخر الدين الرازي خطيب الري : ٧ / ٣٩، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

فهذه الآية كالتفسير والبيان لبيان مقدار المضاعفة ، فجعل الحبة الصغيرة تنتج سبع سنابل ، كل سنبلة منها تحمل حبوبا كثيرة " كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة فيضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني فيقوي إيمان المنفق وتسخو نفسه بالإنفاق""[١]"

وثمة رابط آخر بين هذه الآية وما قبلها وهو أنه لما أمر الله المؤمنين بالإنفاق قبل قيام الساعة في قوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢) ، ناسب أن يذكر ثواب هذا العمل ، ومضاعفة أجره إلى ما لا نهاية من عطاء الله الواسع ، صاحب الفضل الجزيل في يوم ﴿ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ ﴾ حتى تطمئن القلوب، وتأنس النفوس، ترغيبا في العمل، خشية الوقوع في دائرة الظالمين لأنفسهم، الكافرين بنعم الله، الجاحدين عطاءه، "وهذه الآية لفظها بيان مثل بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها، وضمنها التحريض على ذلك، وهذه الآية في نفقة التطوع، وسبل الله كثيرة، وهي جميع ما هو طاعة وعائد بمنفعة على المسلمين والملة، وأشهرها وأعظمها غناء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا". "[٣]"

---

(١) تفسير القرآن الكريم: ابن قيم الجوزية :١ / ١٥٧ ت: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية – ط: دار الهلال – بيروت– الأولى – ١٤١٠ هـ

(٢) سورة : البقرة : آية : ٢٥٤ .

(٣) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – أبو محمد عبد الحق المعروف بابن عطية الأندلسي : ١ / ٣٥٥ – المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد – الناشر: دار الكتب العلمية بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ .

والحق أن أمثال القرآن الكريم لها ميزة خاصة عن الأمثال في غيره، " بأنها تركيز لصورة حية تنصهر فيها كل الأنسجة والخيوط والأفكار التي قام عليها البناء اللغوي للسورة كلها، وهذا شيء يحتاج إلى أن نحكم فهمه من حيث هو فكرة بيانية مستنبطة من أمثال القرآن الكريم، ومن حيث هو لغة بيانية أو أسلوب وطريقة بيانية جرت في الكلام الشريف". "[١]"

وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس ، وتأتي أمثال القرآن الكريم مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر، ... فامتن علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد والأمثال مقادير الأفعال والمتمثل كالصانع الذي يقدر صناعته كالخياط يقدر الثوب على قامة المخيط ثم يفريه ثم يقطع وكل شيء به قالب ومقدار وقالب الكلام ومقداره الأمثال . "[٢]" .

والمقصود بالمثل – هنا – الحالة أو الصفة – ومن ثم فإن الغرض من التشبيه – كما ذهب المفسرون وأرباب البيان – بيان مقدار حال المشبه، أي بيان مقدار الثواب المضاعف عند الله يوم القيامة .

---

(١) ينظر: من الحصاد القديم – دكتور/ محمد محمد أبو موسى صـ ٣٦٨ .

(٢) البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين الزركشي:١ / ٤٨٦ ، ٤٨٧، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ، الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م.

وإن كنت أرى أن الغرض الأصيل من تلك الصورة البيانية هو بيان إمكان وقوع المعنى المتوارى خلف المشبه به الظاهر، لاسيما وأن وقت الحصول على الثواب مؤخر إلى يوم القيامة، ومن اصطفى هذا المصدر التشبيهي للدلالة على بيان إمكان الوقوع، وإن هذا الأجر مما هو محقق الحصول، لأنه وعد الله، ولا يخلف الله وعده، وهو من قبيل ضرب الأمثال لتقريب المعنى للإفهام، وإخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، فإن "أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريح بعد مكنّى، وأن تردّها في الشيء تعلّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواسّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام""[١]"

واصطفاء التعبير بجملة الصلة في جانب المشبه﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ وتعريفه باسم الموصول﴿ٱلَّذِينَ ﴾، والصلة التي جاءت على صيغة المضارع ﴿يُنفِقُونَ ﴾ دلالة على التجدد والاستمرار، والمداومة على فعله، وإضافة المال إلى ذات المنفق ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾، تقييدا لهذا الإنفاق بأنه لا يكون إلا بما كسبته أيديهم من مصدر حلال، أو آل إليه بطريق مشروع كميراث أو غيره،

(١) أسرار البلاغة في علم البيان – الشيخ عبد القاهر الجرجاني – صـ تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر طبعة المدني القاهرة

فالله طيب لا يقبل إلا الطيب ، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[١]، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ــ ﷺ ــ:" إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ... الحديث" [٢]، كما أن في الإضافة نوعا من الخصوصية لهذا المال المنفق بأنه من أفضل أموالهم أو مما تعلق به قلوبهم، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾"[٣]، واستخدام الكل موضع الجزء بالتعبير بقوله﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ والمراد بعض أموالهم؛ دلالة على طيب النفس، وسماحة اليد وقت العطاء، فالإنفاق محبب إليهم حتى ولو وقع على المال كله، وتلك سمة الكرام، يقول أبو الطيب المتنبي: "[٤]"

لولا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كلهُمُ *** الجُودُ يُفْقِرُ والإقدَامُ قَتَّالُ

---

(١) عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، أبو هريرة كناه بها النبي ــ ﷺ ــ ، أكثرالصحابة رواية لأحاديث النبي ــ ﷺ – دعا له النبي ــ ﷺ ــ بثبات الحفظ، وتوفي بالمدينة المنورة سنة:٥٧هـ ودفن بالبقيع ،[معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني: ٤ / ١٨٨٥، تحقيق: ط عادل العزازي طبعة : دار الوطن للنشر، الرياض: الأولى ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م) .

(٢) صحيح مسلم المسمى بالمسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله– ﷺ– للإمام مسلم بن الحجاج – كتاب الزكاة – باب قبول الصدقة من الكسب الطيب المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط:دار إحياء التراث العربي بيروت

(٣) سورة : آل عمران: آية : ٩٢ .

(٤) أبوالطيب المتنبي: أحمد بن الحسين بن الحسن، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة والحكم البالغة المعاني المبتكرة، مدح سيف الدولة الحمداني بسيفيات مشهورة ، ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي ثم هجاه توفي ٣٥٤هـ [الأنساب للسمعاني المروزي،: ٧٨ ت:عبد الرحمن بن يحيى ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد: الأولى، ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٢م]،والبيت في ديوانه المسمى بديوان المتنبي [صناجة العرب] ص ٣٨٣ ، تقديم د/ إسماعيل العقباوي – كلية الآداب والعلوم – جامعة أبو ظبي – طبعة / دار الحرم للتراث .

وهو من المجاز المرسل " إلماعا إلى أن الأبقى لمالك أن تنفق منه كثيرا في سبيل الله ، والآية ماضية على سنة الترغيب، فالمجاز المرسل هنا حث بالغ على الإنفاق في سبيل الله" "[١]".

وفي تقييد الإنفاق بالجار والمجرور ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ طلبا لتصحيح النية، وأن هذا الأجر المضاعف متوقف على شرط القبول، والبحث عن الإخلاص في العمل، واصطفاء (الكاف) دون (كأن) أو غيرها من أدوات التشبيه، في قوله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ ﴾ لتكون واسطة بين طرفي التشبيه؛ لاشتمالها على معنى المشاركة في الوصف إشارة إلى أن هذا الوصف مع ما فيه من مضاعفة الأجر، حتى وصل إلى غايته الحسية، إلا أن معنى المضاعفة في الأجر المتواري خلف هذا التشبيه لا يرتقي إليه وصف، ولا يقدر على حمله لفظ ، ولا نستطيع ان نقول لقوة المشابهة بين الطرفين، فالفرق شاسع ، والبون واسع.

واصطفاء التعبير بالماضي دون المضارع في قوله: ﴿ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ ﴾ للدلالة على تحقق الوقوع ، وتأكيد الوعد في نفوس المنفقين ، وكأن الأجر المضاعف كتب لهم وقت أن همت أنفسهم بالإنفاق ، وليس بعد الإنفاق فسبق الأجر المضاعف سببه في الوقوع .

ولك أن تقابل لفظة ﴿ حَبَّةٍ ﴾ المفردة النكرة الدالة على الإفراد والقلة، بلفظة ﴿ سَنَابِلَ ﴾ وما تحمله من معنى الكثرة في بنائها الصرفي ولم

---

(١) الاحتباك في الذكر الحكيم دكتور / إبراهيم صلاح الهدهد صـ ٧٠ ، الناشر : مكتبة الإيمان – مكتبة الجامعة الأزهرية – بدون ت.

يقل (سنبلات) جمعا للقلة ، إذ السياق العام للآية يقوم على المضاعفة والتكثير، فلا يناسبها القلة في التعبير، قال ابن القيم :" وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل وهي من جموع الكثرة إذ المقام مقام تكثير وتضعيف وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ فجاء بها على جمع القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير" "[1]".

والعدد سبع في قوله﴿ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ لم يأت مقيدا لأفراد معدوده فيه وإنما هو عدد كنائي أريد به المبالغة في الكثرة وذلك لأسباب منها:

ـ أن سياق الآية دال على سعة عطاء الله، ومضاعفة الأجر العظيم على العمل القليل، والعدد سبع موسوم بالقلة في الحساب العربي .

ـ تقييد العدد بلفظ جمع الكثرة (سنابل) دون (سنبلات) الموضوع للقلة ، للدلالة على أنه قصد باللفظ معناه الدال على الكثرة والمضاعفة، وليس مبناه الدال على جمع من جموع القلة .

ـ أن العدد سبع أسلوب عربي يأتي للمبالغة في الوصف لما له من مزية، فالعرب يطلقون الأعداد : السبع والسبعين والسبعمائة ولا يريدون العدد في حصره وما يتطلبه من حصر معدوده وإنما يريدون المبالغة في الوصف، وهو كثير منتشر في كلامهم فقد يأتي العدد في الكلام بمنطوقه ولا يدل مفهومه على عدد معين، ولم يكن الغرض من ذكره الحصر أو قيد أفراد معدودة فيه ، وإنما يأتي لغرض آخر رمت إليه البلاغة العربية، وهو كثير شائع في الأساليب العربية ، كأن تقول : نصحتك سبعين مرة، ودعوت لك سبعين مرة، وزرتك سبعمائة مرة، فالأعداد –هنا – لم يقصد بها ما يفهم

(١) تفسير القرآن الكريم: ابن قيم الجوزية :١ / ١٥٧

من منطوقها العددي، وإنما ذكرت لغرض المبالغة في كثرة القيام بالفعل وتكراره لحد المبالغة فيه. ومنه قول عنترة مفتخرا [١] :

يا عبل لو أني لقيت كتيبة * * * سبعين ألفا ما رهبت لقاها

وأنا المنية وابن كل منية * * * وسواد جلدي ثوبها ورداها

ومنه قول على بن أبي طالب ــ ﷺ ــ: "٢"

لَأَصْبَحَنَّ الْعَاصِ وَابْنَ العاصي * * * سَبْعِينَ أَلْفاً عاقدي النواصي

فالعدد فيه لم يكن مقصودا في ذاته ولم يأت حصراً لأفراد معدوده فيه وإنما جاء لغرض بلاغي رمى إليه المتكلم من كلامه؛ وهو المبالغة في التأكيد والتقرير، قال الزمخشري: "والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير"٣"، والعرب تضع هذا العدد ومشتقاته موضع التضعيف والتكثير،

---

(١) هو عنترة بن عمرو بن شداد العبسي ، وقيل شداد عمه ، وكان عنترة قد نشأ في حجره فنسب إليه دون أبيه ، شهد حروب "داحس وغبراء " فحسن فيها بلاؤه ، وحمدت مشاهده ، له ديوان شعر معروف [ينظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١ / ٢٥٠ – تحقيق أحمد محمد شاكر – ط : دار المعارف – الثانية ، ١٩٨٦م .]

(٢) ينظر : شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد : ٧٧٩/١ ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري ، ط،دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان ــ ، الأولى ، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م ، وصبحه: سقاء الصبوح وقت الصباح. ويروى «لأصحبن» من الصحبة ولعله تحريف. شبه إنالة المكروه بإنالة المحبوب على سبيل التهكم، فهو استعارة تصريحية تهكمية. ويجوز أنه شبه الفرسان لإتيانهم صباحا بالصبوح على سبيل المكنية التهكمية ، ولأصبحن: تخييل. وسبعين ألفاً: مفعول ثاني . والمراد به الكثرة ، والعاقدين: جمع عاقد ، والمراد : نواصي خيلهم أو أطراف عمائمهم من خلفهم أو شعور رؤوسهم . وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والإشاحة في القتال

(٣) ينظر : تفسير الكشاف : ٢ / ٢٩٩

وليس من حصر العدد في أفراد معدودة وتخصيصه به، فهو عندهم يعني الكمال وبلوغ الغاية.

فهذا العدد " سبع " ومشتقاته له عندهم شأن رفيع، تفطن له أهل اللسان، وعرفوا سر استعمالهم له في كثير من إطلاقاته على مسمياته، فنظروا إليه فوجدوا أنهم لا يسمون به إلا ما اكتمل عندهم معناه، فالسبع عندهم من الحيوان ما تكاملت فيه القوى الحيوانية، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: هُوَ سُبَاعِيُّ الْبَدَنِ،إِذَا كَانَ تَامَّ الْبَدَنِ مكتملها، السُبَاعِيُّ من الجمال : الْعَظِيم الطَّوِيل، ويقولون لأفعلن به سبعة للمبالغة فيما سيحل به' ومن ثم استخدمه العرب في كلامهم حين يريدون المبالغة في الوصف، أو الكثرة في العدد،أو بلوغ النهاية في الأمر ، فيقولون نصحتك سبعين مرة ، للمبالغة في تكرار فعل النصح ، ويقولون : لأفعلن به سبعة، للمبالغة فيما سيقع عليه جزاء هذا الوعيد"[١]، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وطريقة أساليبهم في الكلام، ومن ثم كان لمثل هذا النوع من الكلام مظان متنوعة بأغراض مختلفة، لم يأت العدد فيها لقصد حصر أفراد العدد في معدوده، أو تقييده في معين وإنما جيء به لغرض بلاغي رمى إليه المتكلم من كلامه ،

وكذا الحال في العدد مائة في قوله ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ فالعدد لا مفهوم له هنا ، وهو كناية عن الكثرة الكاثرة ، أو المبالغة في الوصف بالكثرة ومنه في البيان النبوي قوله ــ ﷺ ــ في بيان فضل صدقة المقل: «

(١) ينظر : تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري الهروي : مادة (باب العين مع السين مع الباء) تحقيق: محمد عوض مرعبط: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة:الأولى، ٢٠٠١م ، ومعجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس تحقق: عبد السلام محمد هارون ط: دار الفكر : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م و لسان العرب : مادة : سبع .

سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ »[١] ، فالعدد في الأمثال السابقة لم يكن مقصودا في ذاته ولم يأت حصراً لأفراد معدوده فيه وإنما جاء لغرض بلاغي قصده المتكلم من كلامه؛ وهو المبالغة في التأكيد والتقرير، والمعنى سبقت صدقة قليلة ، صدقات كثيرة في الأجر والثواب ، ولهذا فإن الإخبار بالعدد – هنا – لا ينافي غيره، بمعنى أن الحكم بعد العدد ثابت لا يتغير عما كان قبله ، وإنما الغرض من ذكر العدد المبالغة في وصف الشيء بالكثرة .

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ جملة مستأنفة احتراسية جيء بها لتقييد مفهوم المضاعفة ، وإثبات أنها ليست لكل متصدق ، وإنما لم باشرها بشروطها الظاهرة كأن يكون المال من أطيبه ، وأن يكون الإنفاق خالصا لله ، بعيدا عن الرياء والسمعة ، والمعنى "أن المضاعفة درجات كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى لأنها تترتب على أحوال المتصدق وأحوال المتصدق عليه وأوقات ذلك وأماكنه، وللإخلاص وقصد الامتثال ومحبة الخير للناس والإيثار على النفس وغير ذلك مما يحف بالصدقة والإنفاق، تأثير في تضعيف الأجر"[٢]

وامتداد الصوت بألف المد وارتفاعه معها في قوله ﴿ يُضَٰعِفُ ﴾ دلالة على امتداد العطاء والمضاعفة، فكأن اللفظة في ذاتها تتباهى بالعطاء وتنشره على رؤوس الأشهاد.

---

(١) سنن النسائي :: المسمى بـ (المجتبى من السنن) للإمام النسائي باب : جهد المقل من حديث أبي هريرة– ٥ / ٢٥٩ ، تحقيق / عبد الفتاح أبوغدة ، ط / مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب ، الثانية ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

(٢) التحرير والتنوير : ٣ / ٤٣ .

ثم جاءت الفاصلة القرآنية المعجزة في بابها كصورة كاشفة لما حملته الآية من أساليب ظاهرة ، وما طوته من معان متوارية خلف تلك الصورة التشبيهية في قوله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واصطفاء اسم الله الواسع تناسبا مع عطائه الممتد ، وإنعامه الواسع ، ومضاعفته للثواب مضاعفة لا تحد ، فالله واسع في عطائه يهب على القليل ﴿حَبَّةٍ﴾ الكثير ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ ثم يوسع في العطاء بأن يجعل من السنبلة الواحدة مائة حبة ، فكأن الحبة أنتجت بفضل الله الواسع مائة حبة ، ثم من سعة عطاء الله لم يقف العطاء عند هذا العدد غير المراد في ذاته ، وإنما أطلق يد العطاء في قوله ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ، ثم يطمئن المنفق على هذا العطاء الموعود بقوله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ، أي واسع العطاء، عليم بمن يستحق المضاعفة والزيادة فيه، وهذا نوع من الترقي في أسلوب النظم القرآني ، وصعود في المعنى إلى مرتبة عالية من البلاغة والبيان، " فالترقي في الوعد – في النظم القرآني المعجز – له مقاماته وسياقاته، التي يصعد فيها الأسلوب من الأدنى إلى الأعلى ، حيث يوقفنا النظم القرآني على الأدنى منزلة في الوعد ، ثم يصعد إلى الأعظم منزلة ، وقد جاء هذا الترقي في سياقات تقتضي هذا التصعيد، وتنادي على هذا الارتقاء. "[١]

وجملة : ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ جملة مستأنفة جاءت على سبيل التذييل لمجيئها بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل

(١) أسلوب الترقي في القرآن الكريم – مواقعه وأسراره – دكتور / أحمد السيد طلحة صـ ٢١٧ بدون :ط – الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

عند من فهمه، فجاءت تلك الجملة تأكيدا وتقريرا، ودفعا لمن يتوهم استبعاد مضاعفة الأجر، ووصولها إلى تلك الدرجة من الثواب العظيم، والأجر المقيم يقول ابن قيم الجوزية :" ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها وهما الواسع العليم فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطفه فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغني واسع الفضل ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه" "١".

كما أن في اصطفاء التعبير في ختام هذه الآية بهذين الاسمين " حتى يتنبه المنفق ألا نفاد للرزق بالإنفاق، بل الزيادة والنماء إنما يكونان بالإنفاق، وبخلوص النية في الإنفاق""٢"، وهذا يتلاءم وسياق الآية الكريمة، وما يحمله هذا النظم القرآني المعجز من معان .

وإنما حسن هذا المصدر التشبيهي في سياق التعبير القرآني المعجز؛ لما بين طرفي التشبيه من تقارب وتوافق في الوصف من جهات، ونكات، ولطائف، وإشارات دالة على حسن النظم، وقوة السبك ، منها :

---

(١) تفسير القرآن الكريم – التفسير القيم – لمحمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية : ١/ ١٥٨– المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية – الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت– الطبعة: الأولى – ١٤١٠ هـ .

(٢) ينظر : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم – د / إبراهيم صلاح الهدهد ص ٢٥١ – مكتبة الإيمان للطباعة والنشر – الأولى :١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

ـ تنكير كلمة " حبة " في جانب المشبه به ؛ للدلالة على ما يجب أن يكون عليه الإنفاق من الخفاء الموجب للإخلاص في العمل .

ـ تنكير كلمة "حبة" للوحدة أو للتقليل، فهي حبة واحدة يضعها المرء في الأرض، كما أن ما ينفقه المنفق دينارا أو درهما، وإن كثر فهو إذا ما قيس بعطاء الله الواسع يعد قليلا .

ـ المنفق ماله في سبيل الله يخرجه من بين يديه ثم يغيب عن عينه فلا يعلم حاله، وكذا الحبة توضع بباطن الأرض وتغيب عن أعين واضعها.

ـ تلك الصدقة القليلة تخرج في سبيل الله فينميها الله لصاحبها حتى يراها كثيرة عظيمة، وكذا تلك الحبة القليلة يرعاها الله تعالى وينميها حتى تخرج من أصلها حبات كثيرة، ومن ثم فقد جاء هذا المثل القرآني لبيان الفرق بين عطاء محدود، وهو عطاء البشر القاصر، وعطاء واسع ممتد، لا يستطيع واصف الوقوف له على حد، وهو العطاء الرباني المتوارى خلف العطاء المذكور، ثوابا متكاثرا متناميا، لا يعرف حقيقته سوى معطيه، وسع كل شيء علما.

وقد اختلف في تقدير الآية وما فيها من مسكوت عنه، ومحذوف في لفظه، لسهولة الوقوف عليه، فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة، وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة ليطابق الممثل للممثل به فههنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر، فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه فذكر من شق الممثل المنفق، إذ المقصود ذكر حاله وشأنه وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها، وذكر من شق الممثل به البذر إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة وترك ذكر الباذر

لأن القرض لا يتعلق بذكره، فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان"[١]".

وقد ذهب المفسرون في تقدير المحذوف جاء على صورة الاحتباك للحذف الواقع بين الطرفين ، ويغني المذكور في كل طرف عما حذف في الآخر، ويعلق دكتور / إبراهيم الهدهد على حذف الباذر بقوله : "ولعل السر في حذف (الزارع) في الطرف الثاني الإشعار بأن تضعيف الحبة من ذاتها لا من شيء خارج، وهذا كله مما يرغب في الإنفاق حتى يظهر في الأسلوب أن المضاعفة منها هي، وطريقة الترغيب في الإنفاق التي جاءت في التركيب متظاهرة عليها ليست ببعيدة من نهج سورة البقرة، إذ هي أكثر سور الذكر الحكيم حديثا عن الإنفاق بالتصوير البياني الخالب""[٢]".

ولعلك لاحظت اصطفاء التعبير باسم الله الواسع ، وكيف طلبه السياق في النظم القرآني المعجز ، بما حملته الآية من ألفاظ ومعان في سياقها العام وما كان ذلك إلا لغرض بلاغي رمي إليه من وراء هذا الاصطفاء " وأراه – والله أعلم – في القصد إلى كثرة ما يضاعفه الله تعالى من أجر المنفقين الذين أخلصوا أعمالهم لله وحده ، والإشارة إلى أن هذا العدد ليس مقصودا به حقيقته ، وإنما هو رمز للكثرة ، فلا يتصور أحد أن فضل الله تعالى من جزاء المنفقين يقف عند حد أو تحصره الأرقام والأعداد ، وهذا ما نبه إليه تذييل الآية ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فالمضاعفة ليست محدودة ، والله واسع عليم لا تحد سعة عطائه أعداد ولا تحسره

(١) تفسير القرآن الكريم: ابن قيم الجوزية :١ / ١٥٧

(٢) ينظر : الاحتباك في الذكر الحكيم – مواقعه وأسراره: صـ ٧١.

الحسابات""[١]" ، وعلى ذلك " فالتمثيل للتكثير لا للحصر ولذلك قال: والله يضاعف لمن يشاء فيزيده على ذلك زيادة لا تقدر ولا تحصر، فذلك العدد لا مفهوم له، ولا يحد عطاؤه عليم بمن يستحق المضاعفة من المخلصين الذين يهديهم إخلاصهم إلى وضع النفقات في مواضعها التي يكثر نفعها وتبقى فائدتها زمنا طويلا، كالمنفقين في إعلاء شأن الحق وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التي تسوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد، حتى إذا ما ظهرت آثار نفقاتهم النافعة في قوة ملكهم وسعة انتشار دينهم وسعادة أفراد أمتهم عاد عليهم من بركات ذلك وفوائدهم ما هو ما أنفقوا بدرجات لا يمكن حصرها"[٢]".

*وبعد أن بيَّن الله تعالى ثواب الصدقة المضاعف أراد تبيين ما يمكن أن يعوق الإنسان من هذا التصدق، من تتبع خطوات الشيطان ووساوسه، فيمنعه العمل ويحرمه الأجر، قال تعالى:﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾"[٣]"

هذه الآية يبين الله فيها نزغات الشيطان ووساوسه ، وذكر بثوابه هو لا رب غيره "[٤]"، وهي مسبوقة بآية طلب الإنفاق من طيب الكسب، ومما

(١) ينظر : الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ – دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن – دكتور / محمد أمين الخضري صـ ١٦٩– مطبعة الحسين الإسلامية – الأولى :١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م.

(٢) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)– : محمد رشيد رضا : ٣/٥١– الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة النشر:١٩٩٠ م.

(٣) سورة : البقرة : آية : ٢٦٨ .

(٤) المحرر الوجيز : ١ / ٣٦٣ .

خرج من الأرض، وعدم خلط الطيب بالخبيث وذلك في قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾"[١]". وثمة علاقة تربط بين الآيتين وهي" أنه تعالى لما رغب الإنسان في إنفاق أجود ما يملكه حذره بعد ذلك من وسوسة الشيطان فقال:﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾ أي يقال إن أنفقت الأجود صرت فقيرا فلا تبال بقوله فإن الرحمن يعدكم مغفرة منه وفضلا""[٢]"، وَلِأَنَّ الْمُتَصَدِّقَ يُعَارِضُهُ الشَّيْطَانُ، فَيُلْقِي فِي قَلْبِهِ نَقْصَ مَالِهِ بِالصَّدَقَةِ الَّتِي يُحَاوِلُهَا، وَيُخَوِّفُهُ الْفَقْرَ إِذَا كَانَتْ مِنْهُ"[٣]"، والآية حرب نفسية بين طرفين متباعدين داخل كل إنسان، وفوران شعوري لا يلامسه إلا من هم بالطاعة، وعلى قدر الإيمان في قلبه على قدر انتصار أحد الطرفين بداخله .

الطرف الأول: داعي الشر المتمثل في الشيطان ووساوسه ، بالوقوف على باب الطاعة فيبعده عنها، بسلاح التخويف تارة، وسلاح حب النفس تارة أخرى، وهو وعد كاذب خرج من كذوب.

والطرف الثاني داعي الخير المتمثل في وعد الله تعالى لمن هم بالصدقة بالمغفرة والفضل، وعد صدق ممن لا يخلف وعده، وهو الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾"[٤]"، فأي الداعيين أقرب إلى نفسه غلبه.

---

(١) سورة : البقرة : آية : ٢٦٧ .

(٢) مفاتيح الغيب : ٧ / ٥٥

(٣) شرح مشكل الآثار- أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي : ١١ /٥٠١ - تحقيق: شعيب الأرنؤوط- الناشر: مؤسسة الرسالة- الأولى :١٤١٥ هـ، ١٤٩٤ م

(٤) سورة : الروم : آية : ٦.

ولو تأملنا خصائص التراكيب ودلالتها في جانب الطرفين، لوقفنا على تصرف النظم الكريم في صوغها حسب السياق ومقتضيات الأحوال المتوافقة مع مدلولاتها، حتى رأينا المعاني سابقة لألفاظها ، كاشفة عن تلك المدلولات، بنبرة التهديد تارة ، ونبرة الحنو والمحبة تارة أخرى .

فجملة﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ ﴾ استئناف لبيان سبب تيمم الخبيث في الإنفاق في قوله تعالى﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ ﴾ وتوهين شأنه ، وقد بدأت الآية بذكر ما يستقبح ذكره تحقيرا وهو المسند إليه معرفا بالعلمية الدالة على التحقير في قوله : ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾، والتحقير هنا راجع على البخيل الممسك على ماله، والإنزال من قدره، لكونه اتبع خطوات من طرده الله من رحمته، وكتب عليه الخروج مِنَ الْجَنَّةِ مَذْءُومًا مَدْحُورًا، فلفظ الشيطان – هنا – " مشعر بالتحقير بذاته""[1]"، وفي ذكره صراحة مبالغة في التحذير والترهيب من الوقوع في شراكه، لاسيما وأن النظم القرآني في أكثر من موضع حذرنا عداوة الشيطان وأكد عليها بطريق التقديم الدال على الحصر والقصر بقوله :﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾"[2]"، وقال محذرا من الوقوع في شرك وعوده الكاذبة بقوله: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾"[3]"، وهذا يعني أن السياق كان مهيأ من أول لفظة في الآية للوقوف على ذم أهل البخل ووصفهم بأقبح الصفات، وكبح جماح حب المال فيهم، وحرصهم عليه ، وهذا الوصف يحدث

(١) ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٢ / ٨٤ .
(٢) سورة : فاطر : آية : ٦.
(٣) سورة : لقمان : آية : ٣٤.

في النفس حالة نفسية شعورية تتناسب مع حالة البخيل مع ماله وإن كثر، دائما يبخل بالعطاء، شحيح النفس، مغلول اليد ، يخاف الفقر.

وقدم اسم الشيطان مسندا إليه لأن تقديمه مؤذن بذم الحكم الذي سيق له الكلام وشؤمه لتحذير المسلمين من هذا الحكم، كما يقال في مثال علم المعاني «السفاح في دار صديقك»، ولأن في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تقوي الحكم وتحقيقه"[١]".

ومعنى الوعد في قوله: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ ﴾ يعدكم الفقر بالإحالة على تدبيركم واختياركم، يعدكم الفقر بنسيان ما تعوّدتموه من فضله- سبحانه-، ويقال يعدكم الفقر بأنه لا يزيد شكايتك، ويقال يعدكم الفقر بتعليق قلبك بما لا تحتاج إليه، ويقال بالتلبيس عليك رؤية كفايته."[٢]" والمعنى : يحملكم على أن تؤدّوا من الرديء، يخوفكم الفقر بإعطاء الجيد. ومعنى: يعدكم الفقر، أي: بالفقر، وحذفت الباء. قال الشاعر:

أمرتُكَ الخيرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرتَ بِهِ *** فقد تركتك ذا مال وذا نشبِ"[٣]"

والوعد في أصل وضعه لغة شائع في الخير والشر، وأما في الاستعمال الشائع فالوعد في الخير، والإيعاد في الشر حتى يحملوا خلافه على المجاز والتهكم، وقد استعمل هنا في الشر نظرا إلى أصل الوضع لأن

---

(١) التحرير والتنوير : ٣ / ٥٩ .

(٢) ينظر : لطائف الإشارات – تفسير القشيري : ١/ ٢٠٧ .

(٣) ينظر : زاد المسير في علم التفسير- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: ١ / ٢٤٢ – المحقق: عبد الرزاق المهدي- الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – الأولى- ١٤٢٢ هـ . والبيت لعمرو بن معد كرب في ديوانه صـ ٦٣ – تحقيق د.هاشم الطعان . مطبعة الجمهورية ببغداد ١٩٧٠م

الفقر مما يراه الإنسان شرا، ولهذا يخوف الشيطان به المتصدقين فيقول لهم: لا تنفقوا الجيد من أموالكم وأن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا"[١]".

وإنما يعد الشيطان الفقر لفقره، وعجزه عن إعطاء ما ينفع الإنسان، ومن ثم لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ "[٢]"، والتخويف من الفقر يؤدي إلى الأمر بالبخل ومن ثم منع الزكاة، ولذا عبر عنه بلفظ تشمئز منه أصحاب الفطر السليمة في قوله:﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ﴾ أي بالبخل، وهذا ارتقاء في التحذير من الخواطر الشيطانية التي تدعو إلى الأفعال الذميمة"[٣]"، فهذه الكلمة في جميع القرآن بمعنى ما يستقبح فعله ويفحش كالزنا واللواطة، إلا هنا فإنها بمعنى البخل الذي هو منع الزكاة؛ لأن هذه الآية من أوضح الآيات الدالة على فرض الزكاة على النقود والحبوب وغيرها لعموم لفظها وشموله، والعرب تسمي البخيل فاحشا"[٤]"، قال الشاعر:"[٥]":

---

(١) ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي : ٢ / ٣٩ – المحقق: علي عبد الباري عطية– الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

(٢) سورة : النور : آية : ٢١.

(٣) التحرير والتنوير : ٣ / ٦٠ .

(٤) ينظر: بيان المعاني: عبد القادر بن ملّا حويش السيد العاني: ٥ / ٢٤١– مطبعة الترقي– دمشق– الأولى، ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٥ م[مرتب حسب ترتيب النزول]

(٥) البيت لطَرَفَة بن العَبْد في ديوانه : صـ ٢٦– المحقق: مهدي محمد ناصر الدين– الناشر: دار الكتب العلمية– الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي * * * عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

يعني مال البخيل، وفي هذه الآية ذم البخيل والبخل.

والفحشاء وهو اسم جامع لكل معاني السوء، تقبيحا وذما وتحقيرا لمن اتصف به، والمعنى يأمركم بالرغبة فى الدنيا، ويزين له الأسباب التي تقوى الحرص بداخله، وطول الأمل وعدم القناعة، قال صاحب غرائب القرآن: "الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ظاهرا فهو يأمركم بالفحشاء باطنا لأنها اسم جامع لكل سوء فيتضمن البخل والحرص واليأس من الحق والشك في مواعيد الحق بالخلف والتضعيف وسوء الظن بالله وترك التوكل عليه ونسيان فضله وتعلق القلب بغيره ومتابعة الشهوات وترك العفة والقناعة والتمسك بحب الدنيا وهو رأس كل خطيئة وبذر كل بلية. فمن فتح على نفسه باب وسوسة فسوف يبتلى بهذه الآفات وأضعافها""[١]".

وتأمل جمال الوصل وبلاغته في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا﴾

وهو من التوسط بين الكماليين، للاتفاق في الخبرية لفظا ومعنى، مع وجود مسوغ للعطف، وهو تلك التضاد الواقع بين الجملتين إسنادا وجزاء، وقد يحتاج الأمر إلى فضل تدبر لمعرفة الصلة التي تربط بين جملتين، الشيطان يعد بالفقر لفقره، والله يعد بالغنى والفضل لغناه وكثرة فضله، ففي الآية العطاء مختلف المصدر والنتيجة: اثنتان يدعوان إلى المذلة والانحطاط بإسنادها إلى فاعلها وهو الشيطان، واثنتان يدعوان إلى الطمأنينة والعزة

(١) ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان – نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري : ٢ / ٥٧ المحقق: الشيخ زكريا عميرات– الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت– الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ .

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

بإسنادها لفاعلها وهو الله تعالى، يقول الطاهر بن عاشور : " عطف على جملة ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ ﴾ لإظهار الفرق بين ما تدعو إليه وساوس الشيطان وما تدعو إليه أوامر الله تعالى، والوعد فيه حقيقة لا محالة"."(١)

ولا يخفى على ذي لب بلاغي ما في تلك الآية من مقابلة بديعية بين ألفاظ الآية ومعانيها في صورتها الكلية ، فطرفا المعنى بينهما بون واسع ، وفرق شاسع ، وعد منسوب للشيطان الكذوب ، ووعد منسوب لله – تعالى – الذي لا يخلف وعده ، كما أن الموعود به في الطرفين متناقضين متقابلين، الأولى : تخويف وأمر بالسوء والفحشاء ينتج عنها خيبة أمل وحسرة ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ﴾ ، والثانية طمع ورجاء ينبع منها سعادة وسرور ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ ﴾وشتان بين المعاني المتقابلة ترغيبا وترهيبا، " فالمقابلة ليست في المفردات فحسب، وإنما يلاحظ فيها ضرب من التنظيم للمعاني المتوافقة ، ثم يذكر في محاذاتها ما يقابلها""(٢)".

وإنما حسن هذا التقابل لكون المقابل في الجملة الثانية جاء لإزالة ما أحدثه الطرف الأول من زلل ، وأوقع صاحبه في ضلال ، فقابلت المغفرة الفحش المأمور به ، وقابل الفضل – الرزق الواسع الكثير – الفقر الموعود به من الشيطان، قال ابن عباس : " والله يعدكم مغفرة لفحشائكم، وفضلاً في الرّزق"."(٣)

(١) التحرير والتنوير : ٣ / ٦٠ .

(٢) ينظر : علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبو موسى – كتبه وعلق حواشيه دكتور / محمود توفيق محمد سعد : صـ ٨١ – طبعة : مكتبة وهبة –الأولى: ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م .

(٣) ينظر : زاد المسير في علم التفسير : ١ / ٢٤٢ .

ويمكن إدخال هذا النظم القرآني في باب اللف والنشر غير المرتب ثقة بأن المخاطب يستطيع رد ما لكل إلى صاحبه، فالوعد بالمغفرة من الله تقابل الأمر بالفحشاء من الشيطان، والوعد بالفضل من الله يقابل الوعد بالفقر من الشيطان، وإنما قدم الفقر في الأولى؛ لكونه أشد ما يخوِّف به صاحب المال، ومنفذ من منافذ الشيطان للإنسان، وأهم ما يمكن أن يمتلكه البخيل ظنا، ومن ثم يبخل به عن أهله، ومن لهم حق الإنفاق عليهم، بل على نفسه التي بين جنبيه، وقدم المغفرة في الثانية؛ لكونه أفضل ما ينتظر من الله، لاسيما فيمن تعلق قلبه، وانشغل فكره بوعد الله الذي لا يخلف وعده، فالأهم عنده المغفرة أولا، ثم الفضل بعد ذلك ، والعرب يقدمون الأهم وهم به أعنى ، وهذا التقديم ليس من باب تقديم ما حقه التأخير، وإنما هو تقديم في الرتبة والمنزلة، والتي جاءت متساوقة مع الأسلوب القرآني المعجز في الآية الكريمة ، والحق " أن هذا النوع من التقديم لم يلق عناية جل البلاغيين الذي صبوا جهودهم على بيان أسرار ما حقه التأخير كما هو واضح في كتبهم ""[١]".

وفي تنكير لفظتي المغفرة والفضل في قوله: ﴿مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا﴾ تعظيما لشأنهما، وتفخيما لأمرهما، والمعنى مغفرة أي مغفرة، وفضل أي فضل، كما أن إسناد اللفظين إلى الله تعالى في قوله ﴿مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا﴾ لبيان كمالهما ووصولهما الحد الذي لا يمكن الوقوف عليه، فشرف الشيء يكتسب من شرف ما نسب إليه.

---

(١) ينظر : البلاغة القرآنية وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية (في كتب الأحكام) – د/ عبد الله عبد الغني سرحان ص ٥٤٩ طبعة : مفكرون الدولية للنشر – الطبعة : الأولى : ١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م .

يقول الإمام الرازي :" وفي الآية لفظان يدلان على كمال هذه المغفرة أحدها: التنكير في لفظة المغفرة، والمعنى مغفرة أي مغفرة والثاني: قوله ﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ فقوله ﴿مِّنْهُ﴾ يدل على كمال حال هذه المغفرة لأن كمال كرمه ونهاية جوده معلوم لجميع العقلاء وكون المغفرة منه معلوم أيضا لكل أحد فلما خص هذه المغفرة بأنها منه علم أن المقصود تعظيم حال هذه المغفرة، لأن عظم المعطي يدل على عظم العطية""[١]".

وتأتي الفاصلة القرآنية على هيئة جملة مستأنفة في قوله : ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ لتكشف حالة شعورية داخل النفس مع الشيطان من ضيق وهم وحرج، وكأن تلك الفاصلة الدواء الناجع لذلك المرض الداخلي، ببيان سعة فضل الله تعالى، وعلمه المسبق بما هو كائن، ولو وسعنا دائرة السياق خارج نطاق النظم القرآني ، ونظرنا في البلاغة النبوية العالية ، لوجدنا فيها ما يهدينا إلى سر اصطفاء التعبير باسم الله " الواسع" دون غيره، ويؤيد تلك الحالة من الضيق والاختناق الداخلي وذلك فيما ورد في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ــ ﷺ ــ: «مَثَلُ الْمُنْفِقِ وَالْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ، أَوْ جَنَّتَانِ مِنْ لَدُنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَإِذَا أَرَادَ الْمُنْفِقُ أَنْ يُنْفِقَ سَبَغَتْ عَلَيْهِ الدِّرْعُ أَوْ مَرَّتْ حَتَّى تُجِنَّ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَإِذَا أَرَادَ الْبَخِيلُ أَنْ يُنْفِقَ قَلَصَتْ وَلَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَوْضِعَهَا حَتَّى تَأْخُذَ بِعُنُقِهِ أَوْ تَرْقُوَتِهِ فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ»"[٢]"

---

(١) ينظر : مفاتيح الغيب – التفسير الكبير : ٧ / ٥٧ .

(٢) صحيح البخاري – كتاب الزكاة – باب مثل المتصدق والبخيل حديث رقم (١٤٤٣) عن أبي هريرة .

قال الخطابي : هذا مثل ضربه ــ ﷺ ــ للجواد والبخيل شبهما برجلين أراد كل منهما أن يلبس درعا يستجن بها والدرع أول ما يلبس إنما يقع على موضع الصدر والثديين إلى أن يسلك لابسها يديه في كميه، ويرسل ذيلها على أسفل بدنه فيستمر سفلا، فجعل ــ ﷺ ــ مثل المنفق مثل من لبس درعا سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه وخصته، وجعل البخيل كرجل يداه مغلولتان ما بين دون صدره فإذا أراد لبس الدرع حالت يداه بينها وبين أن تمر سفلا على البدن، واجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته، فكانت ثقلا ووبالا عليه من غير وقاية له وتحصين لبدنه، وحاصله أن الجواد إذا هم بالنفقة اتسع لذلك صدره وطاوعت يداه فامتدتا بالعطاء، وأن البخيل يضيق صدره وتنقبض يده عن الإنفاق. "[١]"

فالحديث يكشف حالة كل من المتصدق والبخيل من السعة والضيق فالمنفق على قدر إنفاقه على قدر اتساع الدرع عليه، المستلزم ثوابا بسعة عطاء الله له في الدنيا بالفضل الكبير، وفي الآخرة بالثواب العظيم، فيكون قلبه مطمئنا ، أما البخيل صاحب اليدين المغلولتين إلى عنقه كلما هم أن يلبس درعه أعياه الطلب وكان حملا ثقيلا عليه ، ومن هنا كان الإنفاق في سبيل الله هو مصدر اتساع النفس وطمأنينتها بما عند الله تعالى واسع الفضل والعطاء العلم ، فعطاؤه – سبحانه – يسع الجميع، ومع عطائه عليم بما في الصدور، فيعطي المنفق يسرا في أمره، ويعطي الممسك البخيل عسرا في جميع أحواله، قال الطبري: والله واسع الفضل الذي يعدكم أن يعطيكموه من فضله وسعة خزائنه، عليم بنفقاتكم وصدقاتكم التي تنفقون

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري أبو محمد بدر الدين العينى :٣٠٩/٨- الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

وتصدقون بها، يحصيها لكم حتى يجازيكم بها عند مقدمكم عليه في آخرتكم،"[١]" فجاء ختام الآية أنه تعالى قادر على إغنائكم، وإخلاف ما تنفقونه وهو عليم لا يخفى عليه ما تنفقون، فهو يخلفه عليكم"[٢]"، وهو ترجمة للحديث الشريف أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ــ ﷺ ــ قَالَ: « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ، وَقَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ »"[٣]".

(١) جامع البيان في تأويل القرآن- محمد بن جرير أبو جعفر الطبري :٥/٥٧٥ - المحقق: أحمد محمد شاكر- ط : مؤسسة الرسالة: الأولى،١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م.

(٢) مفاتيح الغيب – التفسير الكبير : ٧ / ٥٧

(٣) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن – باب ما جاء في قوله : {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ} حديث رقم (٤٦٨٤) عن أبي هريرة .

المبحث الثالث :

أثر السياق في اصطفاء التعبير باسم اللّه الواسع في مقام بيان عطاء اللّه

يتصف العطاء بالقلة والكثرة على حسب المعطي، وعلى قدر منزلته ومكانته، وكل عطية موقوفة بعلاقة المُعْطِي بالمُعْطَى له إيجابا وسلبا، فعلى قدر المحبة يكون العطاء، هذا في جانب البشر، أما في جانب الله تعالى فإن عطاءه عطاء ربوبية، بمعنى أن عطاءه يصل لمن تقرب إليه بالطاعة فأحبه، ولمن بعد عنه بالمعصية فأبغضه، وذاك لأنه الخالق الذي وسعت خزائنه، وانتشرت عطاياه، وتعددت نعمه وآلاؤه، وهذا ما وضحته آيات الذكر الحكيم والتي اشتملت على اسم الله { الواسع }، تفصيلا وإجمالا، ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "(١)".

المعنى: من أَيْنَ يَكُون لطالوت الملك علينا؟، وليس من سِبْط النُّبُوَّة، وَلا من سِبْط الملوك، وكان طالوت فيهم حقير الشأن، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ؛ لأن مِنَّا الْأَنْبِيَاء والملوك، ولَمْ يُؤْتَ طالوت سَعَةً مِنَ الْمال أن ينفق علينا، قالَ لهم نبيهم : إِنَّ اللَّهَ اختاره عَلَيْكُمْ، وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وكان أعلم بني إِسْرَائِيل وكان طالوت جسيما عالما وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ بعطية الملك عَلِيمٌ بمن يعطيه هذا الملك. "(٢)".

---

(١) سورة : البقرة : آية : ٢٤٧ .

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي :٢٠٦/١ تحقيق: عبد الله محمود شحاته- ط: دار إحياء التراث، بيروت، الأولى، ١٤٢٣ هـ

وعلاقة الآية بما قبلها، أنهم لما سألوا نبيا لهم أن يبعث لهم ملكا في الآية السابقة في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ﴾ "[1]"، كانت هذه الآية جوابا عما طلبوه منه من أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله ، فلما جاءهم بما طلبوه استبعدوا ملكيته عليهم لكونه لا قدر له بينهم ، فأراد الله أن يعلمهم درسا بأن الملك لله يؤتيه من يشاء من عباده ، لا لشرف في النسب، وإنما لما أعطاه من نعمة البسطة في العلم والجسم .

ومجيء الخبر في قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ مصدرا بـ "إن" الموضوعة لتأكيد الجملة من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل غير المنكر أو الشاك منزلة الشاك، لأن الخبر ألقي ابتداء، بل كان معناه مما طلبوه بألسنتهم في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ﴾، فالخبر منتظر متوقع غير مشكوك فيه ولا منكر له، إلا أنه لما علم أن من بعث إليهم ممن لا يجتمع على قيادته، ويستغرب رئاسته عليهم؛ لكونه غير مذكور بينهم، ولا معروف لديهم بأوصاف القيادة والرياسة خاطبهم خطاب الشاك في الأمر ابتداء تأكيدا لخبره، وكشفا عن حالة التعجب والاستغراب في الخبر من أول لفظة فيه ، وكأنه يقول لهم لا حجة للاعتراض عليه طالما أن الذي بعثه هو الله تعالى ، قال الطاهر بن عاشور :" وتأكيد الخبر بإن إيذان بأن من شأن هذا الخبر أن يتلقى بالاستغراب والشك ، كما أنبأ عنه قولهم: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ " "[2]"

(١) سورة : البقرة : آية : ٢٤٦ .

(٢) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٢ / ٤٨٩ .

وقـــولهم: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ جملة إنشائية استفهامية ، بمعنى : من أين يكون لـــه الملـــك علينا؟ وهو استفهام حقيقي يطلب منه الكشف عن أسباب الحكـــم، أو إنـــه استفهام تعجبي قصد منه التعجب من الحكم، والمعنى كيف يحدث ذلك، وهو لم يعط مقومات الرئاسة علينا ؟! ، ويستبعد أن يكون الاستفهام إنكاريا؛ لأنه لا ينبغي لهم إنكار خبر جاء به نبيهم، وإلا كانوا ضالين كافرين به ذاتا، قال الألوسي:"والاستفهام حقيقي أو للتعجب لا لتكذيب نبيهم والإنكار عليه فـــي رأي" "[1]"، وطلب الفهم منهم ليس إنكارا – كما سبق–، ولكن لما علموا أن الرياسة والقيادة لها من الصفات ما لا تنطبق على المسمى مـــن متطلبـــات الولاية عليهم من إغاثة الملهوف، والوقوف أمام نوائـــب الـــدهر، وإعـــداد الجيوش، وكل ذلك يتطلب ذا مال، وهو فيهم غير منظور إليه؛ لشدة فقـــره، وقلة حاجته، قالوا على سبيل الطلب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾، ولذلك حين عللوا استفهامهم قالوا ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾، أي مال يعينه على أمور الملك وتصاريف الحكم، وهو أمر يحتاج إلى سعة في الرزق، وطول في اليد غير موجود فيما ولِّيَ عليهم، وجملة ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ معطوفة على قوله ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ وهو من عطف الجملة الفعلية على جملـــة اسمية، والتعبير بها اسمية إشارة إلى أن أحقيتهم في الملك ثابتة راسخة ، دون تبديل أو تغيير للأمر ، وأنه أمر مسلم به ، معروف فيما بينهم، والواو في قوله ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ حالية ، والضمير من المتكلمين، وهم قـــادة بني إسرائيل وجعلوا الجملة حالا للدلالة على أنهم لما ذكروا أحقيتهم بالملك

(١) ينظر : تفسير الألوسي : ١ / ٥٥٨ .

لم يحتاجوا إلى الاستدلال على ذلك لأن هذا الأمر عندهم مسلم معروف، إذ هم قادة وعرفاء، والواو في قوله: ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ عاطفة جيء بها " لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالا، والمعنى: كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بد للملك من مال يعتضد به" "[1]".

وقوله :﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ بيان لسعة عطاء الله تعالى، وأنه غير موقوف على طائفة دون أخرى أو على أشخاص معينين دون آخرين، وإنما اتسع العطاء في كون المعطى له ممن لا ينتظر عطاؤه مثل هذا العطاء، فالله إن أعطى أدهش ولذا كان جوابهم ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ استغرابا وتعجبا، وقد تعدد العطاء، وتنوعت اعتباراته في النظم القرآني المعجز، على النحو الآتي:

العطاء الأول : الاصطفاء عليهم ، والتعبير الاصطفاء دون الاختيار لكونها تسير مع مفهوم العطاء الواسع، وتتناغم مع السياق الحالي للنظم القرآني لهذه الآية، حيث إن الاصطفاء في السياق اللغوي معناه أخذ ما يصفو من الشيء، من الصفو وهو ضد الكدر، كأنه خلص من كل شائبة ولذلك اصطفاه الله من بين أقرانه، واختار التعبير بالاصطفاء دون الاختيار؛ لأن الاختيار أخذك خير ما في الشيء في الحقيقة أو خيره عندك، والاصطفاء أخذ ما يصفو منه، ثم كثر حتى استعمل أحدهما موضع الآخر،

(١) ينظر : تفسير مفاتيح الغيب : ٦ / ٥٠٤، التحرير والتنوير : ٢ / ٤٩١ .

واستعمل الاصطفاء فيما لا صفو له على الحقيقة"[١]". والاصطفاء أول صور العطاء والمِنَّه؛ لأن اختيار الله تعالى هو الحجة الدامغة، ومزيد تشريف وتعظيم لمن اصطفاه، والتعبير بما يدل على الفوقية في قوله﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ دون منكم ؛ زيادة في التكريم والتشريف، وأمر بالإذعان والامتثال لأمره ، واصطفاء الله له معناه الاستعداد الفطري الذي وضعه الله فيه بحيث يكون مهيأ كل التهيؤ لقبول ما يلقى عليه من مهام، ومواجهة ما تقابله من قضايا ، وهو من قوله ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾"[٢]"، وهو من أهم مقومات القيادة والرياسة ، قال صاحب المنار :" فسروا اصطفاء الله تعالى هنا بوحيه لذلك النبي أن يجعل طالوت ملكا عليهم، ولعله لو كان هذا هو المراد لقال: اصطفاه لكم كما قال: ﴿ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾"[٣]"، والمتبادر عندي أن معناه فضله واختاره عليكم بما أودع فيه من الاستعداد الفطري للملك، ولا ينافي هذا كون اختياره كان بوحي من الله""[٤]"

ثم إن التعبير بالماضي في قوله:﴿ وَزَادَهُۥ ﴾ زيادة مؤكدة محققة الوقوع، واصطفاء التعبير بالبسط في قوله ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ ﴾ البسطة : السعة ، دلالة على زيادة الفضل من الله ، إذ البسط في اللغة بمعنى النشر يقال : بسط الثوب والفراش إذا نشره ، ومن المجاز: بسط رجله وقبضها، وإنه ليبسطني ما بسطك ويقبضني ما قبضك أي يسرني ويطيب نفسي ما سرك ويسوءني ما ساءك . وبسط عليهم العذاب... وبسطني الله عليه:

---

(١) ينظر : تفسير المنار : ٢ / ٣٧٨ .
(٢) سورة : طه : آية : ٣٩ .
(٣) سورة : البقرة : آية : ١٣٢ .
(٤) ينظر : الفروق اللغوية : ٢٨٥ .

فضلني، ونحن في بساط واسعة...، ومكان بسيط: واسع "[١]". فالبسطة : الزيادة في كل شيء، فالسعة تنثر عطاياها، وتنشر عبيرها في أسلوبية النظم القرآني المعجز وسياقاته، تمهيدا وتوطئة لفاصلتها.

وقدم البسطة في العلم؛ لكونها من الصفات النفسية التي يمتدح بها المرء وهو من تمام مدح الله تعالى لعطيته وسعة فضله، والمدح بالصفات النفسية المكتسبة مقدم بالمدح بالصفات الجسمانية، وإلا لتساوى الناس في الأفضلية الجسمانية، دون النظر إلى دواخلهم، " وهذا منه تعالى تنبيه على أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية "[٢]"، وهذا ما قصد إليه عُبَيْدِ اللَّه بن قَيس الرُّقَيَّات"[٣]" بقوله في مُصعب بن الزبير"[٤]":

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِن اللَّهِ ... تَجلَّتْ عَنْ وَجْه الظلْمَاءُ

---

(١) ينظر : أساس البلاغة : ١ / ٦٠ – مادة بسط .

(٢) ينظر : تفسير مفاتيح الغيب : ٦ / ٥٠٥ . .

(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات العامري الْحِجَازِي أحد الشُّعَرَاء المجيدين قيل لِأَبِيهِ قيس الرقيات لِأَن لَهُ عدَّة جدات كُلهنَّ يسمين رقية–توفّي عبيد الله فِي حُدُود الثَّمَانِينَ لِلْهِجْرَةِ وَيُقَال إِن أَبَاهُ شَبَّبَ بِثَلَاث نسْوَة يسميهن جَمِيعًا رقية[الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي : ١٩ / ٢٦٣– المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى– الناشر: دار إحياء التراث – بيروت–:١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م].

(٤) مُصْعَبُ بنُ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ القُرَشِيُّ الأَسَدِيُّ أَمِيْرُ العِرَاقَيْنِ، كَانَ فَارِساً، شُجَاعا جَمِيْلاً، وَسِيْماً، حَارَبَ المُخْتَارَ وَقَتَلَهُ، وَأُمُّهُ: هِيَ الرَّبَابُ بِنْتُ أُنَيْفٍ الكَلْبِيَّةُ، وَكَانَ يُسَمَّى مِنْ سَخَائِهِ: آنِيَةَ النَّحْلِ[سير أعلام النبلاء لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي : ٤ / ١٤١– المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط– الناشر : مؤسسة الرسالة– الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م].

ـ والأبيات في ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص ٩١ تحقيق وشرح دكتور/ محمد يوسف نجم – طبعة : دار صادر – بيروت ١٣٧٨هـ – ١٩٥٨م .

يَتَقي اللَّهَ في الأمورِ وَقَدْ أَفْ ... لَحَ مَنْ كَانَ هَمَّهُ الاتّقَاءُ

مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فِيـــهِ ... جَبَرُوتٌ منه ولا كِبْرِيَاءُ

وهو ما أخذه عليه عبد الملك بن مروان حين مدحه بقوله : "[١]"

يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مفرقه ... على جبينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَب

فَقَالَ لَهُ عبد الْملك: يَا ابْن قيس تمدحني بِمَا يمدح بِهِ الْأَعَاجِم"[٢]"

واختص هاتين الصفتين فيما ملكه عليهم؛ لأنه "لا بد أن يكون مـــن أهل العلم فإن الجاهل ذليل مزدري غير منتفع به وأن يكون جســـيما لأنـــه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب""[٣]"

كما انه قدم العلم على القوة لكونه أوقع في النفس وأحب إلى القلب من المعاملة بالقوة ، أو لأن المطالب من القائد أن يتعامل بعلمه وحلمه أولا، فإن استعصى الأمر، يكون الحسم والقوة، يقول أبو الطيب المتنبي : "[٤]"

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

---

(١) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : ص ٥

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي : ٧ / ٢٨٨- تحقيق عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي، القاهرة- الرابعة ١٤١٨ هـــ ،١٩٩٧ م.

(٣) ينظر : تفسير النسفي المسمى بـــ " مدارك التنزيل وحقائق التأويل"- لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي :٢٠٤/١- حققه وخرج أحاديثه: يوسف علـــي بديوي- راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو- الناشر: دار الكلـــم الطيـــب، بيـــروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـــ - ١٩٩٨ م.

(٤) البيت من قصيدة في مدح سيف الدولة الحمداني أنشده إياها بآمد وكان منصرفا من بـــلاد الروم والبيت في ديوانه ص ٣٢٧ .

وهذا الترتيب البلاغي للعطاء الإلهي في النظم القرآني جاء حسب أهمية الأسباب الداعية لاختيار من يتقلد أمور الملك ، فبدأ بالاصطفاء الذي بمعنى الاستعداد الفطري القابل للمهام، وإلا فلا قيمة لما يأتي بعده، ثم السعة في العلم الذي به يستطيع الوقوف على معرفة الجزئيات والعلم بالكليات في شئون الناس وأحوالهم، ثم البسطة في الجسم لتساعده في مهام الحروب، وسلوك المفاوز، كما أن وفور القوة، كمال الصحة، من مستلزمات العلم التام، والباعثة للمهابة والوقار، ثم يأتي توفيق الله في الأمور كلها بعد الأخذ بأسباب القيادة في قوله:﴿ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي يوفقه في ملكه، ويعطيه ما يعينه من بطانة صالحة ترسخ ملكه، وتثبت أركانه، "وقدم الأركان الثلاثة على الرابع؛ لأنها تتعلق بمواهب الرجل الذي اختير ملكا فأنكر القوم اختياره فهي المقصودة بالجواب، وأما توفيق الله تعالى بتسخير الأسباب التي لا عمل له فيها لسعيه فليس من مواهبه ومزاياه فتقدم في أسباب اختياره، وإنما تذكر تتمة للفائدة وبيانا للحقيقة؛ ولذلك ذكرت قاعدة عامة لا وصفا له""[١]".

أما المال فليس شرطا في الملك وإنما يمكن الحصول عليه مع تحقق ما ذكر من صفات ، ولله در الشاعر العربي لقيط بن يعمر الأيادي"[٢]" حيث قال في صفات الجدير بالاختيار لزعامة الأمة وقيادتها: "[٣]"

---

(١) تفسير المنار : ٢ / ٣٧٨

(٢) لقيط بن يعمربن خارجة الإيادي، من سادات إياد وكان مقيما بالحيرة ، كان يعلم الفارسية أول ناظم لقصيدة من الطوال، وديوانه من أقدم دواوين الشعر الجاهلي [ينظر : المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي:ص٢٣٠ ت: د/ ف. كرنكو ط : دارالجيل ، بيروت : الأولى، ١٤١١هـ ،١٩٩١م] .

(٣) ينظر : ديوان لقيط بن يعمر صـ ٣٧ ، وما بعدها حققه وقدم له د: عبد المعيد خان ط: دار الرسالة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .

وُقلِّدُوا أَمْـــرَكُمْ للَّهِ درَّكُمُ رَحْبَ ... الذِّرَاعِ بِـأَمْرِ الحَرْبِ مُضْطَـــــلِعَا

لَـا مُتْرفًا إِنْ رَخَاءُ العَيْشِ سَاعَدَهُ ... وَلَـا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَـــــعَا

مُسْتَنْجِداً يَتَحَدَّى النَّاسَ كُلَّهُـمُ ... لَوْ صَارَعُوهُ جَمِيْعًا فِي الوَغَى صَرَعَا

مَا زَالَ يَحْلِبُ دُرَّ الدَّهْرِ أَشْـطُرُهُ ... يَكُوْنُ مُتَّبِعًا يَوْمًا وَمُتَّبَعَـــــــا

وليس يشـــــغله مال يثمــره ... عنكم ولا ولد يبغي له الرفعـــــا

كما أن في اختصاصه هاتين الصفتين؛" لأن الصفات المحتاج إليها في سياسة أمر الأمة ترجع إلى أصالة الرأي وقوة البدن لأنه بالرأي يهتدي لمصالح الأمة، لا سيما في وقت المضائق، وعند تعذر الاستشـــارة أو عنـــد خلاف أهل الشورى وبالقوة يستطيع الثبات في مواقع القتال فيكون بثباتـــه ثبات نفوس الجيش"."[١]"

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي سلطانه يعطيه لمن يستصلحه، وكان عنده استعدادا فطريا لذلك، فالملك له وحده سبحانه غير منازع فيه وهو يؤتيه من يشاء إيتاءه وليس ذلك بالوراثة"[٢]"، وهذه الجملة " يحتمل أن يكون من كلام النبي، فيكون قد رجع بهم إلى التسليم إلى أمر الله، بعد أن بين لهم شيئا من حكمة الله في ذلك. ويحتمل أن يكون تذييلا للقصة من كلام الله تعالى" "[٣]"

ثم تأتي الفاصلة القرآنية المتساوقة مع النظم القرآني المعجز؛ لتكون من باب حسن الانتهاء الذي يعلق في الذهن، ويركز في الـــنفس، ويكـــون

(١) التحرير والتنوير :٢ / ٤٩١ .
(٢) تفسير النسفي : ١ / ٢٠٥ .
(٣) التحرير والتنوير :٢ / ٤٩٢ .

كالدليل القاطع، والشاهد المؤكد لما جاء في الآية من معان بقوله:﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ وفي هذه الفاصلة أقوال ملائمة للسياق القرآني ذكرها الإمام الرازي في تفسيره بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه تعالى واسع الفضل والرزق والرحمة، وسعت رحمته كل شيء، والتقدير: أنتم طعنتم في طالوت بكونه فقيرا، والله تعالى واسع الفضل والرحمة، فإذا فوض الملك إليه، فإن علم أن الملك لا يتمشى إلا بالمال، فالله تعالى يفتح عليه باب الرزق والسعة في المال، والقول الثاني: أنه واسع، بمعنى موسع، أي يوسع على من يشاء من نعمه، والثالث: أنه واسع بمعنى ذو سعة، ويجيء فاعل ومعناه ذو كذا، كقوله: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾"[1]" أي ذات رضا، وهم ناصب ذو نصب، ثم بين بقوله: عليم أنه تعالى مع قدرته على إغناء الفقير عالم بمقادير ما يحتاج إليه في تدبير الملك، وعالم بحال ذلك الملك في الحاضر والمستقبل، فيختار لعلمه بجميع العواقب ما هو مصلحته في قيامه بأمر الملك. "[2]"

ومن ثم كان اصطفاء التعبير باسم الله الواسع في هذا السياق كاشفا عن تلك المعاني التي يمكن أن تغيب عن العقول، إما جهلا وإما تعنتا وتكبرا كما جاء في قولهم : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾، فكان الإخبار عن الله بأنه ﴿ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ من باب التناسب بين الألفاظ والمعاني في الآية، والتلاؤم بين أجزاء النظم القرآني المعجز، والربط بين معانيه وبعضه البعض.

---

(١) سورة : الحاقة : آية : ٢١ ، وسورة : القارعة : آية : ٧ .

(٢) تفسير : مفاتيح الغيب : ٦ / ٥٠٥ .

والذي عندي – زيادة عما سبق – أن السبب في اصطفاء التعبير باسم الله الواسع دون غيره من أسمائه الحسنى في تذييل هذه الآية في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ هو أنهم لما نظروا إلى أنفسهم نظرة عنصرية، وحصروا الفضل والحكمة والعلم فيهم دون غيرهم في قولهم ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ بيَّن الله تعالى أن العطاء الحقيقي مصدره منه سبحانه، فمن أعطاكم الملك باستطاعته سلبه منكم، وإعطائه لغيركم، ومن وهب لكم المال، بقدرته وسعة فضله، وعلمه بمدارك الأمور أن يهبه لغيركم، ومن ثم كان قوله ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ مزيلا لتلك العنصرية، ورافضا كل صورة من صورها المثبتة في سياق حوارهم مع نبيهم ، والله أعلم.

*ومما هو من هذا القبيل وجاء اسم الله الواسع لإزالة العنصرية الظاهرة في كلام طائفة اليهود قوله تعالى : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾"[1]

فالآيات تشير إلى طائفة من اليهود أصابهم الغرور والعجب بدينهم، وظنوا أنه أفضل دين، وأن شريعتهم أفضل الشرائع ؛ ولذلك وجب إتباعهم، فما عاداهم فهو ضال مضل، وكان ذلك مجاهرة ومكابرة كما في قوله ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۚ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾"[2] دبروا للكيد مكيدة أخرى، فقالوا لطائفة من أتباعهم: آمنوا بمحمد أول النهار

(١) سورة : آل عمران : آية : ٧٢ – ٧٤
(٢) سورة : آل عمران : آية : ٦٩ .

مظهرين أنكم صدقتموه ثم اكفروا آخر النهار ليظهر أنكم كفرتم به عن بصيرة وتجربة فيقول المسلمون ما صرف هؤلاء عنا إلا ما انكشف لهم من حقيقة أمر هذا الدين، وأنه ليس هو الدين المبشر به في الكتب السالفة، ففعلوا ذلك"[١]"، وقوله: ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يحتمل أنه من لفظ الحكاية بأن يكون اليهود قالوا آمنوا بالذي أنزل على أتباع محمد فحوله الله تعالى فقال ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ تنويها بصدق إيمانهم ، ويحتمل أنه من المحكي بأن يكون اليهود أطلقوا هذه الصلة على أتباع محمد إذ صارت علما بالغلبة عليهم، ووجه النهار أوله "[٢]"

وموطن الشاهد من تلك الآيات هي قوله تعالى على لسان اليهود: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، وذلك لأنهم لما كان الأمر منهم في الآية السابقة بالإيمان بالذي أنزل على الذين آمنوا أول النهار، خيف أن يفهم كلامهم أنه أمر ظاهر على حقيقته، وأن الإيمان المطالبون به حق فكان قوله : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ من كلام الطائفة من أهل الكتاب، " قصدوا به الاحتراس ألا يظنوا من قولهم آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار أنه إيمان حق، فالمعنى ولا تؤمنوا إيمانا حقا إلا لمن تبع دينكم، فأما محمد فلا تؤمنوا به لأنه لم يتبع دينكم، فهذا تعليل للنهي""[٣]"، وهو نهي في صورة إنكار لأي دين أو شرع أن يأتي بمثل ما أوتوا، وكأن الله اختصهم بمزيد فضله، وواسع عطائه دون غيرهم، نوع من

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٧٨ بتصرف .
(٢) ينظر : السابق نفسه .
(٣) تفسير : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٨٠

التكبر المزعوم، والافتراءات الكاذبة، مما جعلهم يقولون بعد ذلك : ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾"[١]"، فكان الرد على تلك المزاعم بأسلوب يتلاءم مع السياق بنبرة عالية غاضبة وأسلوب مؤكد بأكثر من صورة، جامعا بين الإنشاء والخبر في جملة واحدة في قوله تعالى:﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ وهي جملة اعتراضية بين كلامين متصلين، جاءت " خبرًا من الله عن أن البيان بيانُه والهدى هُداه. قالوا: وسائرُ الكلام بعدَ ذلك متصلٌ بالكلام الأول، خبرًا عن قِيل اليهود بعضها لبعض، فمعنى الكلام عندهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم، أو أنْ يحاجُّوكم عند ربكم""[٢]"، وكرر المعنى ثانية في قوله ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. تأمل تلك الجمل الثلاث، في صورة أفقية، وما تحمله من ردود تدحض مزاعمهم وتهدم اعتقادهم الكاذب، بتعصبهم لطائفتهم المزعوم :

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ

يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

كل جملة تأخذ بتلابيب أختها، كاشفة القناع عن سوء كذبهم، وزيف افترائهم، وفساد اعتقادهم، في أسلوب اتخذ الترقي في النهر والتبكيت، فهي كلمات رادعة، ومعان لاذعة، يشعر به من يسمعها أو يقرأها، ويتعايش مع معانيها، فكل جملة من تلك الثلاث بل كل مفردة فيها، كأنها رمية في

(١) سورة : آل عمران : آية : ٧٥
(٢) ينظر : جامع البيان – تفسير الطبري : ٦ / ٥١٢ .

وجوههم أصابت هدفها، أو صرخة سخط نزلت من الله عليهم، فحلت عليهم غضبه،﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ "[١]". وبنظرة تأملية ذات صبغة بلاغية في خصائص تراكيب تلك الجمل الثلاث، ودلالاتها الأسلوبية، لوقفنا على أثر السياق في اصطفاء التعبير بكل لفظة من ألفاظها دون غيرها من الحقول اللغوية، أو الأساليب البلاغية، وذلك باصطفاء التعبير بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ وهي جملة إنشائية، وهي خطاب موجه للنبي – ﷺ –، والأمر هنا على حقيقته إلزاما له – ﷺ – بتبليغ ما أمر به تساوقا مع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾"[٢]"، وتصدير الكلام بالأمر طلبا لجذب انتباه المخاطبين، وأخذا بتلابيب قلوبهم، وإيقاظا لعقولهم، كما أن فيه نوعا من التأكيد على المعنى وتقريره في النفس حيث إن جملة القول مؤكدة لمعنى للاعتراض الأول في قوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ ، ويمكن حملها على أنها جملة اعتراضية في ذاتها، جيء بها في نهاية الكلام إما تذييلاً، وإما تكميلاً جاء في الأطول: " جوز بعضهم وقوعه آخر جملة، لا في أثناء جملة، لا تليها جملة متصلة بها، فلا يكون بين كلامين أيضا، وقد تبعهم الكشاف في مواضع، فيشمل الاعتراض بهذا التفسير التذييل كلها، وبعض صور التكميل، وهو أن يكون لجملة لا محل لها من الإعراب كما في قول الحماسي: "[٣]"

وما مات منّا سيّد في فراشه ... ولا طلّ منّا حيث كان قتيل

---

(١) سورة : طه : آية : ٨١

(٢) سورة : الأنعام : آية : ٦٧

(٣) البيت للسموأل ، وهو في ديوانه ص ١٠ صنعة أبي عبد الله نفطويه – تحقيق الشيخ : محمد حسن آل ياسين – مطبعة المعارف بغداد ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م .

فإن المصراع الثاني تكميل؛ لأنه لما وصف قومه بشمول القتل لهم أوهم ذلك ضعفه فأزاله بوصفهم بالانتقام من قاتليهم""[١]".

وجاءت الجملة مؤكدة بدخول " إن" المؤكدة ، على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام،﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾، فكأن الكلام كرر مرتين، ردا على إنكارهم، ودفعا لتعصبهم وتعنتهم وجحودهم وهذا مساوق لقراءة بن كثير " آن يؤتى " بالمد وقرأها الباقون غير ممدود"[٢]"، قال أبو منصور: القراءة بغير المد، وَمَنْ قَرَأَ بالمدَ فهو استفهام- معناه الإنكار، وذلك أن أحبار اليهود قالوا لِذَوِيهم: أيُؤتى أحَدٌ مثلَ مَا أوتيتُم؟ أي: لا يُؤتى أحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ. "[٣]" ، ويمكن أن يحمل الكلام على اللف والنشر المرتب ويكون المعنى: " أن كراهتهم أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا هو سبب كيدهم للمؤمنين ليرجعوا وكراهتهم أن يحاجهم بعض المؤمنين عند ربهم هو سبب كتمانهم ذلك عمن لم يتبع دينهم أو عدم الإيمان لهم إذا هم ادعوه""[٤]". وهذا يتساوق مع قوله تعالى – حكاية عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ "[٥]".

---

(١) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم – : ابن عربشاه عصام الدين الحنفي :٢ / ٩٩- حققه: عبد الحميد هنداوي- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٢) كتاب السبعة في القراءات – أحمد بن موسى أبو بكر بن مجاهد البغدادي – ص ٢٠٧- المحقق: شوقي ضيف- ط: دار المعارف – مصر: الثانية، ١٤٠٠هـ.

(٣) معاني القراءات لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور :١ /٢٦٠- الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود- المملكة العربية السعودية- الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م.

(٤) تفسير المنار : ٣ / ٢٧٨ .

(٥) سورة : البقرة : آية : ٧٦ .

ثم يأتي قوله ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ جملة فعلية إشارة للتجدد والاستمرار ، فعطاء الله تعالى متجدد بتجدد الأحوال والأزمنة ، ومستمر ما بقيت الحياة ، بل إن عطاءه ممتد إلا ما بعد الحياة؛ لسعة فضله، ومزيد جوده وكرمه، والمعنى: " يعطيه من أراد من عباده تكذيبا من الله عز وجل لهم في قولهم لتباعهم: لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل لهم: ليس ذلك إليكم، إنما هو إلى الله الذي بيده الأشياء كلها، وإليه الفضل، وبيده يعطيه من يشاء""[١]" .

وثم يأتي ختام الآية متناسقا مع السياق العام للآيات القرآنية بقوله:﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ لبيان سعة فضله وإحاطة علمه بالمستحق له للإشعار بأن اليهود قد ضيقوا بزعمهم حصر النبوة فيهم هذا الفضل الواسع، وجهلوا كنه هذا العلم المحيط، ثم بيَّن تعالى أن فضله الواسع، ورحمته العامة تابعة لمشيئته، لا لوساوس المغرورين من أهل الكتاب الذين حجروهما بجهلهم فقال: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فهو يجعل من يشاء نبيا ويبعثه رسولا، ومن اختصه بذلك فإنما يختصه بمحض فضله العظيم لا بعمل قدمه، ولا لنسب شرفه وإن جهل ذلك الذين يظنون أنه – تعالى – يحابي الأفراد أو الشعوب بذلك وبغيره، – تعالى – الله عن ذلك"[٢]".

وبتأمل نسج الألفاظ في النظم القرآني المعجز، وترتيبها في النص على حسب وقوعها في النفس، واعتمادها على عناصر أسلوبية تتناسب مع

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – تفسير الطبري : ٥ / ٥٠٦ .
(٢) ينظر : تفسير المنار : ٣ / ٢٧٨ .

السياق العام للآيات ، نقف على اصطفاء التعبير باسم الله الواسع، وما يحمله من دلالات تدحض مزاعم اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأن شريعتهم أفضل الشرائع، ومن ثم كان تعصبهم وجحودهم فضل الله الواسع ، ورحمته العامة التي وسعت كل شيء رحمة وعلما ، كل ذلك وفق إرادته ، وحسب مشيئته وحده سبحانه ، ومعلوم أن كل منع من البشر حرمان ، وكل المنع من الله فهو عين العطاء ، ومن ثم ناسب أن يكون سياق الآيات الدالة على معنى الإتيان ومعنى النزع المسندان إلى الله تعالى دالة على سعة عطاء الله تعالى ، وسعة فضله وإحسانه ، عليم بمنازع الأمور وأحوالها .

*ومما هو داخل في سياق المنع والعطاء وإظهار عطاء الله الواسع وعلمه المحيط بمنازع الأمور وأنه يختص ببعض عطاياه من يشاء من عباده ويمنعها عن غيرهم وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "(١)"

تحمل هذه الآية الشريفة إنذارا قويا، وتحذيرا شديدا، ولهجة صارخة في وجه كل من يتخذ اليهود والنصارى أولياء، والتي يمكن أن تسبب ارتدادا في دينه وعقيدته، فهذه الآية من النظم القرآني جاءت معترضة بين معنى ما قبلها في قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ "(٢)"، وهو النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وأنه من يتولهم فإنه يعد من بني عقيدتهم، ومعنى

(١) سورة : المائدة : آية : ٥٤ .
(٢) سورة : المائدة : آية : ٥١ .

لاحقتها التي تبين الولاية الحقيقة وهي أن تكون لله ورسوله ولأهل الإيمان والصلاح في قوله:﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ "[1]"، وقد دعت لاعتراضها مناسبة الإنذار في قوله ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾. فتعقيبها بهذا الاعتراض إشارة إلى أن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ذريعة للارتداد، لأن استمرار فريق على موالاة اليهود والنصارى من المنافقين وضعفاء الإيمان يخشى منه أن ينسل عن الإيمان فريق، وأنبأ المترددين ضعفاء الإيمان بأن الإسلام غني عنهم إن عزموا على الارتداد إلى الكفر""[2]".

وفي إيثار المؤمنين واختصاصهم بالنداء دون غيرهم، تسجيل عليهم، وتذكيرهم بما مَنَّ الله عليهم، واختصهم به، وتفضل عليهم بأنهم أهل التصديق والإيمان بالله ورسوله، والإقرار بما جاء به النبي- ﷺ -، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ "[3]".

كما أن في النداء تشويق يبعث على حالة الإثارة والترقب، تجعل المخاطبين في حالة استعداد تام، ونفس مترقبة، لفهم ما يلقى عليهم، ومن ثم يشمر عن ساعد الجد، ويحرص على ترجمة ما يطرح عليه من معنى، لاسيما وأنه نودي بأحب ما يمكن أن ينادى به المسلم، وهو بلوغ درجة الإيمان، ففرق بين الإسلام والإيمان ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ

(١) سورة : المائدة : آية : ٥٥ .
(٢) ينظر : تفسير التحرير والتنوير : ٦ / ٢٣٥ .
(٣) سورة : الحجرات : آية : ١٧ .

تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ "[١]".

والنداء في ذاته من أهم أنواع الخطاب الحواري القائم على مشاركة المخاطب في الكلام، إما لفظا، وإما إنصاتا وتدبرا، للخروج بالثمرة المرجوة منه، وهو الإذعان والامتثال المطلقان لما يحمله هذا الخطاب الحواري من معان، ولعل مجيء الخطاب القرآني بصيغة تدل على الشمول والاستغراق المتمثل في نداء المؤمنين كافة، دون تعيين أشخاص أو أفراد قاموا بموالاة اليهود والنصارى، وكانوا سببا في هذا الحوار الزاجر الرادع لهم، ولكل من يأتي بفعالهم، قال قتادة :" نزلت الآية خطابا للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة" "[٢]"، ولا شك أن لغة الخطاب الحواري المتمثل في أسلوب النداء هنا " هو النموذج المثل لكل سمة خطابية، فهو نمط حياة، وأسلوب تفكير، وصيغة متقدمة من صيغ التواصل والتفاهم، ومنهج من مناهج الوعي والثقافة، ووسيلة من وساءل التبليغ والدعوة، استعمله البلغاء والفصحاء في صناعتهم، وعمدت إليه الشعوب في تواصلها وتفاعلها مع غيرها، وعمدت إليه الشعوب في تواصلها وتفاعلها مع غيرها" "[٣]".

وجملة ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ لا محل لها من الإعراب جواب لجملة النداء وقوله:﴿ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ في محلّ رفع خبر المبتدأ ﴿ مَن ﴾"[٤]"، أي

---

(١) سورة : الحجرات : آية : ١٤ .

(٢) سورة : الحجرات : آية : ١٤ .

(٣) ينظر : تفسير المحرر الوجيز لابن عطية : ٢ / ٢٠٧ .

(٤) الجدول في إعراب القرآن الكريم محمود بن عبد الرحيم صافي : ٦/ ٣٨٤- الناشر: دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت-: الرابعة، ١٤١٨ هـ.

يرجع، والردّة: الرجوع من الإيمان إلى الكفر، ويُسمى فاعل ذلك مرتداً، قال الراغب: الارتداد والردة: الرجوع في الطريق الذي جاء منه، لكن الردة تختص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ وهو الرجوع من الإسلام إلى الكفر، وقال تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ "[١]".والمعنى : من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر، وهو خطاب على وجه التحذير والوعيد، وفيه إعلام بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه" "[٢]"، وكلمة ﴿مَن﴾ في معرض الشرط للعموم، للدلالة على أن كل من صار مرتدا عن دين الإسلام إلى قيام الساعة فسوف تحدث لهم سنة التبديل والتغيير، ومن ثم يأتي الله بقوم لهم عزة وسلطة على أعدائهم ، رحماء بينهم، وهو من قوله تعالى:﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ "[٣]" .

واختلف في ﴿يَرْتَدَّ﴾: فنافع وابن عامر وأبو جعفر بدالين مكسورة فمجزومة بفك الإدغام على الأصل، لأجل الجزم، والباقون بدال واحدة مفتوحة مشددة بالإدغام لغة تميم للتخفيف "[٤]"، ويمكن توجيه القراءتين بما

---

(١) سورة : الكهف : آية : ٦٤ – وينظر: المفردات في غريب القرآن – أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى : صـ ٣٤٩– المحقق: صفوان عدنان الداودي– الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت– الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ .

(٢) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي :١ / ٢٣٥– المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي– الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت– الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ .

(٣) سورة : الفتح : آية : ٢٩ .

(٤) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر– أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء صـ ٢٥٤– المحقق: أنس مهرة– الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان– الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ.

يتلاءم مع السياق القرآني " فالقرآن الكريم بقراءة الإدغام﴿ يَرْتَدَّ ﴾ حذر من الوجه الأخف والأدنى من الردة مبالغة، وتنبيها بالأدنى على الأعلى، وبقراءة الفك ﴿ يَرْتَدِدْ ﴾ استيفاء للنهي من كل جانب ، تنبيها للأعلى على الأدنى، وبذلك يمكن الجمع بين القراءتين، أي لا يجوز الارتداد بأي صورة، ولا بأي حال ""[١]".

وجملة ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ جواب الشرط والعائد على الشرط الاسمي محذوف تقديره فسوف يأتي الله بقوم غيرهم ، فالضمير (هم) في غيرهم المقدرة هو العائد على معنى﴿ مَن ﴾ الشرطية الظاهر أثرها، وهذا عند من التزم عود الضمير على اسم الشرط من جملة الجواب، وقوله: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، وقدم محبة الله على محبتهم؛ لكون محبة الله هي السبب في حبهم له ، وعلامة حب الله لهم أن يوفقهم للعمل الموجب لتلك المحبة ، ولن يقوم العبد بما فيه المحبة إلا إذا هداه الله إليه، وقد قيل: إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر أين أقامك، ولذا كان تقديم حب الله لهم مقدما على حبه له، كما قدم توبته على المتخلفين عن رسول الله في الحرب ليتوبوا في قوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ "[٢]"، فلولا أن تاب عليهم ما وفقوا في طلب التوبة من الله ، كما أنه لولا محب الله لهم ما وفقوا إلى سبل حبهم له ،" ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه: إمّا أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه، والمدح والثناء عليه، أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله،... وأمّا محبة العبد لله- سبحانه-

---

(١) تنوع الأفعال بين الفك والإدغام في الذكر الحكيم " دراسة بلاغية" أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد – صـ ٣٢ ، مكتبة الإيمان – الثانية ١٤٣٧هـ،٢٠١٥م .

(٢) سورة : التوبة : بعض آية : ١١٨ .

فهى حالة لطيفة يجدها فى قلبه، وتحمله تلك الحالة على إيثار موافقة أمره، وترك حظوظ نفسه، وإيثار حقوقه- سبحانه- بكل وجه""[١]".

وقوله ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فُسِّرَ معناه في قوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ "[٢]"، وهوتقسيم بديع لما جمع مبهما في النكرة الموجودة في قوله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ ﴾ وهو وصف لهؤلاء القوم الذين بدل الله بهم من ارتد عن دينه، وهو من التقسيم الذي يذكر فيه أحوال الشيء، مضافاً إلى كل منها ما يليق به، وإنما حسن هذا التقسيم؛ لكونه استقصى جميع ما ابتدأ به في قوله: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، وقد جاء مقسما قسما مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولم يتفلت منه جنس من أجناسه، فهم " يبذلون المهج فى المحبوب من غير كراهة، ويبذلون الأرواح فى الذبّ عن المحبوب من غير ادخار شظية من الميسور""[٣]".

والكلام في مجمله من قبيل الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال ، فإنه لما قال سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ أراد المخاطب الوقوف على هؤلاء القوم الذين تفضل الله عليهم بواسع فضله بحبه لهم، وحبهم له، فكان قوله ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ مفصلا ما أجمل وكاشفا ما أبهام، والحق أن أسلوب الإيضاح بعد الإبهام ذو قيمة عالية في توضيح المعنى وتأكيده، بإبرازه في أوضح صورة بعد أن تشوقت له

(١) ينظر : لطائف الإشارات تفسير القشيري: ١ / ٤٣٢ – بتصرف
(٢) سورة : الفتح : بعض آية : ٢٩ .
(٣) ينظر : لطائف الإشارات – تفسير القشيري : ١ / ٤٣٢ .

النفس وترقبت، فيصير المعنى في نفس المخاطب في أتم صورة من التوضيح والتأكيد، بعد أن أحاط بجميع جزئيات المعنى مجملا مبهما ثم مفصلا موضحا، وعلمان خير من علم واحد ،"[1]" فمثل هذا الأسلوب يحمل بين ألفاظه معاني التحقيق والتأكيد، ومزيد العناية والاهتمام بالشأن مع ما فيه من توضيح الخفي، وإزالة المبهم، وجعله ظاهرا جليا، "فالبدل يجري مجرى التأكيد في التحقيق والتشديد، ويجري مجرى الوصف في الإيضاح""[2]"، يقول السكاكي :" وأما الحالة المقتضية للإبدال فهي أن يكون الكلام السابق غير واف بتمام المراد وإيراده، أو كغير الوافي والمقام مقام اعتناء بشأنه، إما لكونه مطلوبا في نفسه، أو لكونه غريبا، أو فظيعا، أو عجيبا، أو لطيفا، أو غير ذلك مما له جهة استدعاء للاعتناء بشأنه فيعيده المتكلم بنظم أوفى منه على نية استئناف القصد على المراد ليظهر بمجموع القصدين إليه في الأول والثاني أعني المبدل منه والبدل مزيد الاعتناء بالشأن ، وأما الحالة المقتضية للإيضاح والتبيين فهي أن يكون بالكلام السابق نوع خفاء والمقام مقام إزالة له. وأما الحالة المقتضية للتأكيد والتقرير فظاهرةٌ ""[3]".

---

(١) هذا مثل معناه: لأن تضيف على علمك الأول علماً حادثا خير من اكتفائك بمعرفتك. وأصله أن رجلاً وابنه سلكا طريقا، فقال الرجل يا بني: سل لنا عن الطريق: فقال الولد: إني به عالم، فقال الرجل: يا بني: "علمان خير من علم واحد" فصارت مثلاً. [ينظر: مجمع الأمثال للميداني: ٢٥٢/٢ تحقق محمد محي الدين عبد الحميد ط : مصطفى البابي الحلبي ، مصر} و: ينظر المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني : ٢٩١ ، وبهامشه حاشية المير سيد شريف – الناشر : المكتبة الأزهرية

(٢) ينظر : شرح اللمع في النحو " للقاسم بن محمد الضرير : ص ١١١ ، تحقيق: رجب عثمان محمد – مكتبة الخانجي القاهرة، الأولى: ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م .

(٣) ينظر : مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر أبو يعقوب السكاكي : صـ ٢٥٣ ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – الطبعة: الثانية – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

والذلة في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمعنى العطف والحنو ،أي عاطفين عليهم على وجه التذلل ، فالكلام على التضمين ولذلك عبر بـــ " على " دون " اللام " فلم يقل : للمؤمنين " ، وحكى الزمخشري: فإن قيل فهلا قلت: أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه من التذلل والتواضع، والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾."[١]"

فالقصد مدحهم بما يدل على موالاة المؤمنين ومعاملتهم بما يرضيهم فأذلة من التذلل والخضوع لا من الذلة والهوان"[٢]"

ولعل المراد بذلك أنه استعيرت (على) لمعنى اللام ليؤذن أنهم غلبوا غيرهم من المؤمنين في التواضع حتى علَوهم بهذه الصفة، وكون المراد به أنه ضمن الوصف معنى الفضل والعلو، يعني أن كونهم أذلة ليس لأجل كونهم أذلاء في أنفسهم بل لإرادة أن يضموا إلى علو منصبهم وشرفهم فضيلة التواضع، لا يخفى ما فيه لأن قائل ذلك قابله بالتضمين فيقتضي أن يكون وجها آخر لا تضمين فيه. وقيل: عُديت الذلة ب (على) لأن العزة في قوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عُدِّيت بها كما يقتضيه استعمالها وقد قارنتها فاعتبرت المشاكلة، وقد صرحوا إنه يجوز فيها التقديم والتأخير، وقيل: لأن العزة تتعدى بـــ (على) والذلة ضدها فعوملت معاملتها من حمل النقيض على النقيض كما يحمل النظير على النظير.""[٣]"

---

(١) سورة : الفتح : بعض آية : ٢٩ – وينظر : تفسير الكشاف : ١ / ٦٤٨ .

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني : لمحمد بن عرفة الدسوقي: ٧١٥– المحقق: عبد الحميد هنداوي– الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

(٣) ينظر: التضمين النحوي في القرآن الكريم– محمد نديم فاضل: ١ / ٣٤٢،٣٤٣ – المجلد الأول : القسم النظري – الناشر: دار الزمان، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية– الطبعة: الأولى، (١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م).

ولاشك أن هذا الحمل على المعنى نوع من التوسع في اللغة محمود يساعد على كشف المعاني المقصودة والمستترة خلف الألفاظ .

وقوله:﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ احتراس وتكميل قصد به دفع إيهام أن وصفهم بالذلة لضعفهم وهو أنهم من حيث إن شأن المتذلل أن يكون ضعيفًا مهينًا دفع ذلك بأن تذللهم للمؤمنين ليس عن ضعف ومهانة، وإنما هو وليد التواضع منهم للمؤمنين، بدليل أنهم أعزة على الكافرين، فلو اكتفى بالقرينة الأولى لأوهم أن الذلة للعجز، فاقترن بما ينبئ عن التواضع، ولا يؤدي إلى التكبر""[١]".

فانظر إلى هذه البلاغة، فإنه سبحانه وتعالى علم – وهو أعلم – أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة للمؤمنين، لكان مدحًا تامًا مشتملًا على الرياضة والانقياد لإخوانهم، ولكن زاد وصفا آخر على سبيل التكميل ووصفهم – بعد ذلتهم لإخوانهم المؤمنين– بالعزة على الكافرين، وهذا هو التكميل الذي يتطفل البدر على كماله ،"[٢]" ومثاله، في الشعر:"[٣]"

حَلِيمٌ إِذَا ما الْحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ *** مَعَ الْحِلْمِ في عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهِيبُ

فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم لأوهم أن ذلك له من عجزه عند القدرة، فأزال هذا الوهم بأن جملة إنما هو في وقت تزيين الحلم لأهله، وهذا

---

(١) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان –للعلامة شرف الدين حسين بن محمد الطيبي : صـ ٣٧٤ – تحقيق دكتور / هادي عطية مطر الهلالي– مكتبة النهضة العربية – الأولى – ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

(٢) ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب – ابن حجة الحموي: ١ / ٣٧٤– المحقق: عصام شقيو– الناشر: دار ومكتبة الهلال–بيروت، دار البحار–بيروت– : ٢٠٠٤م

(٣) البيت في خزانة الأدب لكعب بن سعيد الغنوي [خزانة الأدب: ١ / ٣٧٤]

إما يكون عند القدرة، وإلا لم يكن زينا، وأما المصراع الثاني فيزعم المصنف أنه تأكيد لمفهوم قوله: إذا ما الحلم زين أهله، مع أنه غير حليم حين لا يكون الحلم زينا لأهله، فإنه من لا يكون حليما حين لا يحسن الحلم يكون مهيبا في عين العدو لا محالة"[١]".

ولا يخفى ما أحدثته تلك المقابلة في المعنى بإثبات متضادين لموصوف واحد، في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فالذلة بمعنى العطف والحنو حال التعامل مع المؤمنين، والعزة بمعنى الشدة والقسوة حال التعامل مع الكافرين، " وإثبات الوصفين المتقابلين للقوم صناعة عربية بديعية، وهي المسماة الطباق، وبلغاء العرب يغربون بها، وهي عزيزة في كلامهم، وقد جاء كثير منها في القرآن، وفيه إيماء إلى أن صفاتهم تسيرها آراؤهم الحصيفة فليسوا مندفعين إلى فعل ما إلا عن بصيرة، وليسوا ممن تنبعث أخلاقه عن سجية واحدة بأن يكون لينا في كل حال، وهذا هو معنى الخلق الأقوم، وهو الذي يكون في كل حال بما يلائم ذلك الحال""[٢]"، وهذه المقابلة أحدثت نمطا من التوازن والتناسب له حسنه وبهاؤه، يخلع على الألفاظ جزالة وفخامة، ويكسب المعاني وضوحًا قويةً، وقوله : ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي بالقتال لجعل كلمة الله هي العليا، وهي صفة ثالثة من صفات القوم الذين أحبهم الله وأحبوه، ولفرط حبهم وانشغالهم بربهم وحده لا يقع في خلدهم لوم لائم، وصدرت الجملتان بفعلين الأول مضارع مثبت ﴿يُجَٰهِدُونَ﴾ للدلالة على استمرار الفعل وتجدده كلما ناداهم

---

(١) ينظر: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم : صـ ٩٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير : ٦ / ٢٣٨.

مناد الجهاد، والثاني مضارع منفي ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ﴾ للدلالة على نفي الصفة عنهم، وهذا النفي مستمر ومتجدد بتجدد الأفعال وهو تعريض بالمنافقين الذين يقومون بالأفعال ويضعون في حسبانهم غير الله تعالى، قال الألوسي:﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ﴾ فيما يأتون من الجهاد أو في كل ما يأتون ويذرون، وهو عطف على يُجاهِدُونَ بمعنى أنهم جامعون بين المجاهدة والتصلب في الدين، وفيه تعريض بالمنافقين، وجوز أن يكون حالا من فاعل يُجاهِدُونَ أي يجاهدون وحالهم غير حال المنافقين، والتعريض فيه حينئذ أظهر، وقيل: إنه على الأولى لا تعريض فيه بل هو تتميم لمعنى يُجاهِدُونَ مفيد للمبالغة والاستيعاب وليس بشيء"،"[١]"

واللَّوْمَةُ المفردة الواحدة من اللَّومِ، ورَجُلٌ مَلُومٌ ومَلِيم: قد استحقّ اللَّوْم،"[٢]"، ولما وقعت في سياق النفي دلت على العموم "كما يزول معنى الجمع في الجمع المعمم بدخول ال الجنسية لأن (لا) في عموم النفي مثل (ال) في عموم الإثبات، أي لا يخافون جميع أنواع اللوم من جميع اللائمين إذ اللوم منه: شديد، كالتقريع، وخفيف واللائمون، منهم اللائم المخيف، والحبيب فنفى عنهم خوف جميع أنواع اللوم. ففي الجملة ثلاثة عمومات : عموم الفعل في سياق النفي، وعموم المفعول، وعموم المضاف إليه، وهذا الوصف علامة على صدق إيمانهم حتى خالط قلوبهم بحيث لا يصرفهم عنه

(١) ينظر: روح المعاني : ٣ / ٣٣١.

(٢) ينظر : العين – أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري باب اللام والميم : ٣ / ٣٤٣ – المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي– الناشر: دار ومكتبة الهلال.

شيء من الإغراء واللوم لأن الانصياع للملام آية ضعف اليقين والعزيمة""[١]" ، فاصطفاء التعبير بالمفردة الدالة على الوحدة في سياق النفي الداخلة على النكرة الدالة على العموم للمبالغة في الوصف، والتأكيد على إثباتها فهم لا يخافون لوم اللائم عظم أو حقر، قال الزمخشري :" وفيها وفي التنكير مبالغتان كأنه قيل: لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من اللوام""[٢]".

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ المشار إليه في النظم القرآني كل ما ذكر من صفات ، والتعبير بـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ وهي موضوعة للبعيد قصدا لعلو الشأن وارتفاع المنزلة لهؤلاء القوم الذين تشرفوا بمحبة الله لهم ، فهي إشارة لما ذُكِرَ من أوصاف القوم بالمحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة الواحدة، فبين تعالى أن كل ذلك بفضله إحسانه. "[٣]"

ومن ثم تحقق محبتهم لله، والمتمرس في بلاغة النظم القرآني يقف على هذا الترتيب المعجز لتلك الصفات، والترقي فيها من الأدنى منزلة إلى الأعلى وهو محمود في باب المدح، ملائم للسياق الواقع فيه ، حيث ذكر حالتهم من العطف والحنو مع من ينتسبون إليهم، ومن هم على شريعتهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ ﴾ ولما كانت تلك الصفة مما يمكن حملها على غير مرادها ارتقى إلى ما يزيل ذلك التوهم بذكر صفة أعلى درجة في المدح وهي كونهم ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، ولكن لما كانت هاتان الصفتان مما يمكن أن يتصف بها كثير من الناس أقوالا، جعل ذلك مترجما إلى أفعال فعلت نبرة المدح، وارتفع الوصف إلى وصفهم بما هو ذروة سنام الإسلام " الجهاد "

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير : ٦ / ٢٣٨ .

(٢) ينظر: الكشاف : ١ / ٦٤٨ .

(٣) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٢ / ٣٨٢ .

وذلك في قوله ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولكن لما كان من الإمكان التخلي عن هذه الصفات خوفا من ملامة لائم، أو أراد بها السمعة، أزال ذلك بصفة تعلو وترتفع بالأعمال إلى مصاف الإخلاص، وجعل تعاملهم مقصورا على الله دون غيره فتقووا به، وعارضوا من أجله وذلك لكونهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾، فالسياق هنا يتطلب هذا الترتيب التصاعدي الذي يصور علو الهمة وارتفاع الدرجة، وإتمام النعمة من الله تعالى لأن المشار إليه من صفات مردها إلى ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾، وقوله : ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾: " استئناف أو خبر بعد خبر أوحال""[1]"، وأي فضل يمكن أن يتمناه المرء بعد فضل الله عليه والامتنان عليه بصفات هي أحبها وأفضلها عنده، وتأمل التناسب والتلاؤم بين الصفات ودرجتها التصاعدية لترى بلاغة النظم، ودقة التعبير، واصطفاء الصفات مع ترتيبها، تقف على أبلغ حالة، وأعظم عطاء لاسيما وأنه مضاف إلى لفظ الجلالة ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ واختصاص عطائه لمن يشاء ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ وليس للجميع، فقيمة العطاء تظهر عند اختصاصه بطائفة أو أفراد دون غيرهم، والمقصود بـ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ هم الذين ذكروا في قوله ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فكان البداية كاشفة، والمرجعية قبليه، والدلالة متقدمة، والإعادة مبهمة﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ لتتسع دائرة الفضل ويعظم العطاء، فالله تعالى ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾"[2]"، فيسعد أصحاب الفضل بالعطاء، وينـدم المرتدون المحرومون منه، مع كونه متاحا مباحا لمن يأتي بشروطه وأركانه، ولكن

(١) ينظر : دراسات لأسلوب القرآن الكريم- : محمد عبد الخالق عضيمة : ١١ / ٣٠٠ - تصدير: محمود محمد شاكر- الناشر: دار الحديث، القاهرة-: بدون

(٢) سورة : آل عمران: بعض آية : ٧٤ .

هيهات هيهات أن يصاب مارق مرتد من فضل الله مثقال ذره، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾"[١]".

ثم يأتي قوله:﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ تذييلا متناسقا مع السياق الحالي، وفاصلة معجزة تتلاءم مع السياق المقالي؛ ليبين كل منهما كمال قدرته تعالى على المنع والعطاء، فيمنع فضله عن قوم، ويكرم وفادة أقوام، عليم بمصالح الأمور وتدبيرها، "فالواسع إشارة إلى كمال القدرة، والعليم إشارة إلى كمال العلم، ولما أخبر الله تعالى أنه سيجيء بأقوام هذا شأنهم وصفتهم أكد ذلك بأنه كامل القدرة فلا يعجز عن هذا الموعود كامل العلم فيمتنع دخول الخلف في أخباره ومواعيده"[٢]"، قال ابن عاشور: "فوصفه في هذه الآية بأنه ﴿ وَٰسِعٌ ﴾ هو سعة الفضل لأنه وقع تذييلا لقوله: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾، وأحسب أن وصف الله بصفة واسع في العربية من مبتكرات القرآن، وقوله: ﴿ عَلِيمٌ ﴾ صفة ثانية بقوة علمه أي كثرة متعلقات صفة علمه تعالى، ووصفه تعالى بأنه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ هنا؛ لإفادة أنه عليم بمن يستأهل أن يؤتيه فضله ويدل على علمه بذلك ما يظهر من آثار إرادته وقدرته الجارية على وفق علمه متى ظهر للناس ما أودعه الله من فضائل في بعض خلقه" "[٣]".

ولا يخفى أن هذا العطاء الكامن في تلك الصفات التي اتصف بها القوم عطاء معنوي، وهو رزق غير ظاهر حسي فالعطاء عطاء إلوهية ، أما الرزق الظاهر المادي، فإن الله تعالى لم يمنع فضله على أحد لكون العطاء فيه عطاء ربوبية، فليعلم ذلك .

---

(١) سورة : القلم: آية : ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٢ / ٣٨٢ .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٣ / ٢٨٤ .

والعطاء الإلهي غير مقتصر على بيان فضل الله الواسع المادي أو المعنوي، وإنما وصل العطاء والسعة في باب العبادات لاسيما الفعلية منها، وبيان يسر الإسلام وسهوله أوامره، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ "[١]".

فمن خلال معرفة سبب النزول لهذه الآية نستطيع أن نسير مع السياق القرآني المعجز للوقوف على السر البلاغي في اصطفاء التعبير باسم الله الواسع في تذييل هذه الآية الكريمة ، وذلك فيما ورد عن جابر بن عبد الله"[٢]" قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – سَرِيَّةً كُنْتُ فِيهَا فَأَصَابَتْنَا ظُلْمَةٌ فَلَمْ نَعْرِفِ الْقِبْلَةَ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَّا: قَدْ عَرَفْنَا الْقِبْلَةَ هِيَ هَاهُنَا قِبَلَ الشَّمَالِ، فَصَلَّوْا وَخَطُّوا خُطُوطًا وَقَالَ بَعْضُنَا: الْقِبْلَةُ هَاهُنَا قِبَلَ الْجَنُوبِ فَصَلَّوْا وَخَطُّوا خُطُوطًا فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْخُطُوطُ لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ فَلَمَّا قَفَلْنَا مِنْ سَفَرِنَا سَأَلْنَا النَّبِيَّ – ﷺ – عَنْ ذَلِكَ، فَسَكَتَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾"[٣]"

وعن ابن عمر نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت"[٤]"، وقيل: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما

---

(١) سورة :البقرة : آية : ١١٥ .

(٢) جابر بن عبد الله

(٣) السنن الكبرى – أحمد بن الحسين الخراساني، أبو بكر البيهقي – بَابُ اسْتِبَانَةِ الْخَطَأِ بَعْدَ الِاجْتِهَادِ حديث رقم (٢٢٤٣)– المحقق: محمد عبد القادر عطا– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – : الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

(٤) صحيح مسلم – كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا – بَابُ جَوَازِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ عَلَى الدَّابَّةِ فِي السَّفَرِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ حديث رقم (٣٧) عن ابن عمر

أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا، وقيل: معناه فأينما تولوا للدعاء والذكر ولم يرد الصلاة"[١]"،

وربط الآية بما قبلها في قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾"[٢]"، فقد تبدو الصلة منفصمة بين هذه الآيات، ولكنك إذا تأملت الآية الأولى وجدت فيها حديثا عن الذين لا يعلمون ولا يتلون الكتاب، وهؤلاء لا يعترفون بشيء مما أنزل الله، فهم يسعون في تقويض أسس الأديان جميعا، لا فرق عندهم بين دين ودين، وهم لذلك يعملون على أن يحولوا بين المسلمين وعبادة الله، ويسعون في تخريب بيوت عبادته، ومن هنا صحّ هذا الاستفهام الذى يدل على أنه لا أظلم من هؤلاء الذين لا يعلمون، وارتباط الآية الثالثة بما قبلها لدلالتها على أن عبادة الله ليست في حاجة إلى مسجد يقام، بل لله المشرق والمغرب، فحيثما كنتم ففي استطاعتكم عبادة الله؛ لأن ثمة وجه الله"[٣]".

وهذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه، وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم، أي: لا أحد أظلم ممن منع مساجد

---

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني : ١ / ١١٠ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه- الطبعة: الثالثة، تفسير النسفي : ١٢٣/١ .

(٢) سورة :البقرة : آية :١١٣، ١١٤ .

(٣) ينظر : من بلاغة القرآن - : أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي :صـ ١٧٨- الناشر: نهضه مصر – القاهرة- عام النشر: ٢٠٠٥ .

الله"[١]"، والعلاقة: أنه لما ذكر تعالى أن أناسا يُمْنَعُوَن من العبادة في بيوت الله تعالى، أعلمهم – هنا أن الأرض كلها لله ، وأن أي جهة تتجه إليها في عباداتك فإن الله يقبلها، قال الإمام الجويني: سمعت أبا الحسن الدهان يقول: وجه اتصاله هو أن تخريب بيت المقدس قد سبق في قوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ أي فلا يَجْرِمَنَّكم ذلك واستقبلوه، فإن لله المشرق والمغرب""[٢]".

يقول الطاهر بن عاشور :"لما جاء بوعيدهم ووعد المؤمنين عطف على ذلك تسلية المؤمنين على خروجهم من مكة ونكاية المشركين بفسخ ابتهاجهم بخروج المؤمنين منها وانفرادهم هم بمزية جوار الكعبة فبين أن الأرض كلها لله تعالى وأنها ما تفاضلت جهاتها إلا بكونها مظنة للتقرب إليه تعالى وتذكر نعمه وآياته العظيمة فإذا كانت وجهة الإنسان نحو مرضاة الله تعالى فأينما تولى فقد صادف رضا الله تعالى""[٣]"، وعلى هذا فالمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إسكانها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان""[٤]"، إلا أن الإمام الشوكاني ذهب إلى أن "هذا التخصيص لا وجه له فإن اللفظ أوسع منه وإن كان المقصود به بيان السبب فلا بأس""[٥]".

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني : ١ / ١٥٣ .
(٢) ينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن : ١ / ٥١ .
(٣) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني : ١ / ١١٠ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه- الطبعة: الثالثة، تفسير النسفي : ١٢٣/١ .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير : ١ / ٦٨٢ .
(٥) ينظر : فتح القدير – الشوكاني : ١ / ١٥٣ .

وعلى كلٍ فللسياق أثر واضح في تحديد خاتمة الآية بما جاءت عليه من الإخبار عن الله تعالى بصفتي السعة والعلم، وذلك من أول لفظة في الآية الكريمة، بدلالة تقديم الخبر الظرف على الاختصاص، مقترنا باللام الدالة على الملكية، " والظاهر أن أصل معانيها الاختصاص، وأما الملك فهو نوع من أنواع الاختصاص، وهو أقوى أنواعه. وكذلك الاستحقاق، لأن من استحق شيئاً فقد حصل له به نوع اختصاص""[1]"، وذلك في قوله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾، فالله يحيط بكل شيء تملكا وعلما، وله كل شيء ملكا وخلقا، والتعبير بالمشرق والمغرب لإحاطتها وشمولها على ما يقع تحتها، وبهما يكنى عن الأرض واتساعها، يقال : طاف مشارق الأرض ومغاربها، قاصدا ما بينهما، ويفسر ذلك قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ "[2]"، وهذا من صحة التفسير الذي ما ترك بعد المذكور في الآية ما يمكن إدخاله فيه، وتلك سمة النظم القرآني المحكم، فالله تعالى بيده ملكوت كل شيء، قدرته ظاهرة في الكون كله، وحكمته وسعت كل شيء علما، وهو المستحق بالعبادة، ومن ثم أمرنا بالتولي إلى أي موضع فذاك وجه: فقوله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ ﴾ الذي تشرق منه الشمس كل يوم ﴿ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ الذي تغرب فيه كل يوم، فتأويله إذا كان ذلك معناه: والله ما بين قطري المشرق وقطري المغرب إذا كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود

---

(١) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي : صـ ٩٦ – تحقيق : د فخر الدين قباوة –الأستاذ محمد نديم فاضل– طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان : الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

(٢) سورة : طه : آية : ٦ .

لشروقها منه إلى الحول الذي بعده وكذلك غروبها"[١]"، قال الزمخشري :" أي بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها للَّه هو مالكها ومتوليها""[٢]"، وهو هنا " لم يكن كلامه في الحذف مقصورًا على بيان المحذوف كما هو الحال عند كثير من البلاغيين، وإنما يبحث سره دائما ويكشف ما ينطوي عليه من معنى بلاغي""[٣]"، فهو يرى أن الكلام مبني على حذف المضاف لغرض بلاغي رُمِيَ إليه وهو إيقاع العموم المطلق على ما تحمله الملكية التي هي نوع من التخصيص، أو التخصيص المستفاد من التقديم بدأ، فالتقديم – هنا – أفاد الاختصاص مدبجة ومقرونة بالملكية التي هي نوع من الاختصاص الدال على الاستحقاق.

وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي أينما تحولوا وجوهكم في سفركم وحاضركم صلاتكم، والأصل في التوليه في غالب استعمالاتها تكون بمعنى الإدبار يقال: ولَّى الشيءُ وتَولَّى: أَدْبَرَ، وولَّى عَنْهُ: أَعْرَضَ عَنْهُ"[٤]"، ومنه قوله تعالى:﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾"[٥]"، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ

(١) ينظر : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب– : محمد الأمين الشنقيطي: صـ ٢٢– مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.
(٢) ينظر : الكشاف : ١ / ١٨٠ .
(٣) ينظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية – دكتور / محمد محمد أبو موسى : صـ ٤١٤ ،طبعة مكتبة وهبة – الثالثة – ١٤٣٨هـ ، ٢٠١٧م .
(٤) ينظر : لسان العرب : مادة : ولي .
(٥) سورة : آل عمران : آية : ١١١ .

وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾"[١]"، وقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾"[٢]"، وتستعمل في معنى الإقبال أيضا مثل قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾"[٣]"، فهي تقتضي المعنيين معا، فيقال: وليت عن كذا أي أدبرت عنه، ووليت إليه أي أقبلت، والآية هنا من قبيل الإقبال على المطلوب، كما ذهب المفسرون.

وإن كنت أرى أنه يمكن حمل الكلام على كلا المعنيين ، فعلى معنى الإدبار يكون المراد إن أدبرتم عن كل ما سوى الله، وصدقت نيتكم، وخلصت طويتكم ففي أي جهة ستجدون الله، وأما على معنى الإقبال فهو واقع من مفهوم الآية ظاهرا – والله أعلم بمراده –.

وقوله :﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ففيه قولان: أحدهما: فثم الله، يريد: علمه معكم أين كنتم. وهذا قول ابن عباس، ومقاتل. والثاني: فثم قبلة الله، قاله عكرمة، ومجاهد"[٤]".

والمعنى توجهوا إلى الله بنيتكم في أي موضع تجدون الله فيه، والكلام – هنا – مشعر بالتخيير والتخيير لا يثبت إلا في صورتين أحدهما: في التطوع على الراحلة، وثانيهما: في السفر عند تعذر الاجتهاد للظلمة أو

(١) سورة : الأنفال : آية : ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة : الأحزاب : آية : ١٥ .
(٣) سورة : الممتحنة : آية : ٩ .
(٤)ينظر : زاد المسير في علم التفسير : ١ / ١٠٤ .

لغيرها، لأن في هذين الوجهين المصلي مخير، فأما على غير هذين الوجهين فلا تخيير"[١]".

ولما كان هذا الحكم التشريعي من باب التيسير على العباد، والسعة في القيام بالطاعة، وطلب العبادة في أي مكان وعلى أي جهة سواء كان ذلك بالمشرق أو المغرب أو ما بينهما ؛ ناسب أن تكون الفاصلة القرآنية في تناسب لفظي، ودلالة حالية، وسياقات مقالية مع سياق النظم القرآني المعجز تأمل كيف ختمت هذه الآية بهذين الاسمين من الأسماء الحسنى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي صاحب الفضل العظيم، والعطاء الواسع، أو الرحمة والرأفة بعباده فيما فيه مظنة المشقة ، فوسع برحمته كل مصلٍ، بتيسير الأمر، والسعي خلف كل ما يذهب المشقة، ولا يكلفهم ما لا يطيقون فيقال : " واسع يعني يوسع عليكم أمر الشرائع، ولم يضيق عليكم الأمر. ويقال: واسع، يعني واسع الفضل""[٢]" ، وهو من قوله:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾"[٣]"، وأكد الخبر بحرف التوكيد (إن) الداخلة على الجملة الاسمية لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر سعة قدرة الله تعالى ، وينكر حكمته وعلمه خاصة وأن سبب نزول الآية دلّ على اختلاف المصليين في الحكم الشرعي لتلك المسألة وعودتهم لرسول الله- ﷺ – للسؤال ، فنزل السائل لمعرفة الحكم منزلة الشاك أو المنكر، كما أن اصطفاء التعبير بلفظ الجلالة ظاهرًا في قوله :﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ بعد أن ذلك متقدما في قوله : ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ لما في لفظ الجلالة من مصادر الجلال والجمال وهذا يتناسب والسياق المقالي

(١) ينظر : مفاتيح الغيب : ٤ / ١٩ ، واللباب في علوم الكتاب : ٢ / ٤١٧ .
(٢) سورة : البقرة : بعض آية : ٢٨٦ .
(٣) سورة : البقرة : بعض آية : ٢٨٦ .

ترغيبا وترهيبا نظرا لمناسبة الآية بما سبقها ، و السياق الحالي عطفا وتيسيرا، " ففيه إرشاد إلى سعة رحمته. وأنه يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم،"[١] " .

قال القرطبي : قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ " أي يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم. وقيل:" واسع" بمعنى أنه يسع علمه كل شي، كما قال﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمًا ﴾"[٢] وقال الفراء: الواسع هو الجواد الذي يسع عطاؤه كل شي، دليله قوله تعالى﴿ وَرَحۡمَتِى وَسِعَتۡ كُلَّ شَىۡءٍ ﴾"[٣]، وقيل: واسع المغفرة أي لا يتعاظمه ذنب، وقيل: متفضل على العباد وغني عن أعمالهم، يقال: فلان يسع ما يُسْأَل، أي لا يبخل، قال الله ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾"[٤] أي لينفق الغني مما أعطاه الله"[٥].

كما أن في قوله : ﴿وَٰسِعٌ ﴾ تذييل لمدلول السياق المقالي في ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ ۚ ﴾ فالله واسع ملكه فله المشارق والمغارب وما بينها السماوات وما فيها مع اتساعها، والأرض وما عليها مع انبساطها متحكم فيه تحكم ملكية واختصاص وهو من قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾

(١) ينظر : فتح القدير – للشوكاني : ١/ ١٥٣ .
(٢) سورة : طه : آية : ٩٨ .
(٣) سورة : طه : آية : ٩٨ .
(٤) سورة : الطلاق : بعض آية : ٧ .
(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي – أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي: ٢ /٨٤ – تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش– الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة– الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾"[1] ومن ثم فهو ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما تخفيه الصدور، ولذا كان قوله :﴿ عَلِيمٌ ﴾ تذييل للمدلول المقالي في قوله :﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ أي القصد والنية بإخلاص التولي ظاهرا، وإصلاح الطوية باطنا. ومن ثم جاءت خاتمة الآية القرآنية لتربط النظم القرآني المعجز بعضه بعضا، بما احتوته الآية من ألفاظ ومعان تتعانق وتتناسق تناسق العقد المتماسك يزين بعضه بعضا .

هذا... والله أعلى وأعلم وأعز وأحكم.

(١) سورة : الأعراف : آية : ١٥٦ .

الخاتمة

هذا التنقل في رياض البلاغة القرآنية من خلال البحث عن أثر السياق في اصطفاء التعبير باسم الله الواسع في النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية لشواهده المتنوعة في آي الذكر الحكيم، على سبيل الاستقراء الكلي للآيات والتي تُبَيِّنُ " إنما كان الإعجاز لأن القرآن الكريم استخرج من اللغة مزايا هي فيها، لم تستخرجها ألسنتهم، وهذه المزايا هي طاقات وقدرات إبانة في اللغة، تتمثل في التقديم والحذف، وفروق الخبر، إلى آخره!، وهذه مزايا في اللغة كان بها فضل كلام على كلام""[١]".

وبعد هذه الدراسة – التي لا تزال تبدأ – نستطيع أن نقف وقفات بحثية، لا أنعتها بنتائج البحث قدر ما هي سمات للبلاغة القرآنية اجتمعت في سياق آيات ذيلت باسم الله { الواسع } في فاصلتها القرآنية، وكان لها أثرٌ بيِّن في توضيح المعاني تأكيدًا وتقريرًا .

السمة الأولى: تشابه صياغة الألفاظ مع المعاني في سياقات الآيات القرآنية ذات الطابع الواحد في البحث، وقد تجلى لنا ذلك فيما وقفنا عليه سياقات الآيات المقالية وكذا سياقاتها الحالية، كما في مقام الحديث عن الأسرة وأحوالها فمع اختلاف السياق الحالي، إلا أن ثمة اتفاق في السياق المقالي، فتشابهت الأساليب، وتقاربت الصياغة، فكان التمكين والتمهيد الحاصلين في الآيتين الواقعين قبل الفاصلة القرآنية ، في قوله تعالى في آية النكاح: { إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ }، وقوله في آيات

(١) ينظر : المسكوت عنه في التراث البلاغي – دكتور / محمد محمد أبو موسى : صـ ٣٨٤ – طبعة: مكتبة وهبة – الأولى – ١٤٣٨هـ ، ٢٠١٧م .

المصالحة أو المفارقة { وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كَلًا مِنْ سَعَتِهِ }، كما يظهر ذلك – أيضا – في مجيء الجمل التمهيدية في الموضعين في صورة الشرط الموجب لمعنى الإلزام، في قوله تعالى:{ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، وقوله في آيات المصالحة أو المفارقة {وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كَلًا مِنْ سَعَتِهِ }، والسياق الشرطي إلزام الشيء والالتزام به بمعنى تحقق الجواب موقوف على تحقق الفعل، ومثل هذا يذهب بالكلام إلى معنى الطلب حسب المعنى المراد أمرا أو نهيا، كما ان بين الآيتين تشابه في اتحاد جواب الشرط لفظا ومعنى باختيار التعبير بالفعل المضارع "يُغْنِ" الدال على الكفاية وعدم الحاجة للغي، بثا للطمأنينة، وكذا في مقامي الحث على الإنفاق، وبيان سعة عطاء الله .

السمة الثانية: اختيار كلمات مخاطبة للقلوب المطمئنة ، مشغلة للأذهان الشاردة، ملهبة للمشاعر الإيمانية، مغرية للعاطفة، ترغيبا وترهيبا، ذات حبكة محكمة، يتجلى ذلك واضحا في مقام الحديث عن الحث على الإنفاق طلبا للإخلاص فيه، والبعد عن الرياء والسمعة، ترغيبا. كما في قوله تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، والحث على الإنفاق والبعد عن البخل بالمال والاحتفاظ به ضنا به على الفقراء والمحتاجين ترهيبا كما في قوله تعالى:﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾"[1]".

(١) سورة : البقرة : آية : ٢٦٨ .

السمة الثالثة: أن الكلمة القرآنية في تلك الآيات – كغيرها من ألفاظ القرآن الكريم – لم تكن مختارة لذاتها، وإنما هي مطلب مقالي، متناسب مع السياق الحالي، فالكلمة القرآنية في سياقها معجزة في هذا السياق لا لذاتها، ولكن باصطفائها، واستخدامها في موضعها الذي استخدمت فيه، ولذا لو حاولت أن تستبدل بالكلمة القرآنية كلمة أخرى وجدت اختلافا كثيرا، بل وجدت خللا وقلقا واضطرابا"[١]"، وهذا ما يتجلى لنا في كل كلمة احتوتها تلك الآيات التي ذيلت باسم الله الواسع ، حيث جاءت الألفاظ في حبكة محكمة، مع ترتيبها حسب ورودها سياقا ومقاما، في تماسك وقوة سبك كأنها مع صاحبتها كالعقد المنتظم الذي يأخذ بالألباب لجمال نظمه، وحسن براعته ورسمه، وبهذا يتحقق وجه إعجاز الكلمة القرآنية في بلاغة نظمها، وحسن عرضها .

السمة الرابعة : التعبير بالاسم الظاهر موضع الضمير في كل الآيات التي اشتملت على اسم الله الواسع، لما في اصطفاء التعبير بالظاهر موضع الضمير من معان هي من خصائص دلالة الاسم الظاهر دون الضمير، وهذا محقق في التعبير بلفظ الجلالة " الله " مكررا ظاهرا بعد ذكره مقدما في جملة التوطئة لجملة الفاصلة المشتملة على اسم الله الواسع خبرا، مع وجود مسوغ للتعبير بالضمير لما في الاسم الظاهر من معان الجمال والجلال في وقت واحد وهذا ما لا يوجد في التعبير بالضمير، ومعنى الجمال يتناسب وما في الآيات من الرحمة والرأفة بين الزوج والزوجة حال النكاح حال الفراق، كما أن فيه صفات الجلال تعنيفا وترهيبا وزجرا لمن تسول له نفسه منهما

(١) ينظر : مدخل إلى الإعجاز القرآني : أ.د/ بسيوني عبد الفتاح فيود صـ ٣٣ .

البعد عن المنهج القويم الذي رسمه الإسلام لأتباعه في حالتي النكاح والتفريق.

السمة الخامسة : مجيء اسم الله الواسع مجردا من الإضافة، "وما أضافه إلى شيء معين دل على أنه واسع في جميع الكمالات، وتحقيقه في العقل أن الموجود إما واجب لذاته، وإما ممكن لذاته، والواجب لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى، وما سواه ممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الله الواجب لذاته، وإذا كان كذلك كان كل ما سواه من الموجودات فإنما يوجد بإيجاده وتكوينه، فلزم من هذا كونه واسع العلم والقدرة والحكمة، والرحمة، والفضل والجود، والكرم""[1]" .

السمة السادسة : تغير التعبير عن المعنى بين موضع وآخر في السياق الوصفي ذاته بين الكلام المرسل والمؤكد ، أو باختيار صور البيان والتوضيح ، وجعل تلك السياقات المقالية مسخرة لخدمة مراد الحق من الخلق، وإظهار أمر جديد لم يكن موجودا فيما سبقه من كلام، واصطفاء تلك الألفاظ والتعبيرات مع السياقات المختلفة لم تأت لمجرد رفاء لغوي، أو لإظهار ملكة بيانية ، أو تلوين لفظي لا طائل منه – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا –، وإنما هو تعبير اصطفاه السياق المقالي حتى يتطابق مع السياق الحالي فجاء مسخرا لتوضيح المعنى وتقريره في النفوس، فالتعبير القرآني يؤلف بين الغرض القرآني والغرض الفني فيما يعرضه من صور ومشاهد، ويجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، والفن والدين صنوان في أعماق النفس، وقرارة الحس، كما ذهب أحد المفكرين .

---

(١) ينظر : تفسير مفاتيح الغيب – التفسير الكبير : ١١ / ٢٣٨ .

وبعد ... فإنه مما لاشك فيه أن الباحث في البلاغة القرآنية لابد أن يعترف بالقصور الفكري، والعجز العقلي أمام عظمة هذا الكتاب المعجز، وأن يُسَلِّمَ منذ بداية تجربته مع القرآن الكريم أن ما يتوصل إليه من نتائج قد تكون صوابا منيت بتوفيق الله وفضله ، وقد تكون ناقصة أو خطأ ، لاسيما حين التعرض لوصف اللفظة القرآنية واصطفاء التعبير بها دون غيرها ، بما يوصف عند علمائنا الكرام بالجرأة على كتاب الله ، واستنطاق ألفاظه ما لا ينبغي قوله، أو الذهاب إلى مثله، ولكن تبقى صلاح النية هي حجتي، وحسن الطوية هي غايتي ، والله من وراء القصد هو ملاذي ، وبيان إعجاز كتابه وحسن نظمه هو شفيعي أمام تقصيري ، فاللهم هذا بحثي قد ضمنته جهدي،لأدرك من خلاله جانبا من جوانب الحق الذي يتم به الخير ، فتقبله ــ ربنا ــ بقبول حسن وأنبته نباتا حسنا،وأجرنا فيه خيرا ، وحسبي أني اجتهدت ، ولا يخطئ المجتهد الأجر﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١)"

والحمد لله بداية لا تنتهي ونهاية لا تزال تبدأ ، فـ ﴿ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباحث

أ.د / أحمد محمود محمد الجبالي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ

(١) سورة الحديد : آية ٢١ ، وسورة : الجمعة : آية : ٤

(٢) سورة القصص : آية : ٧٠

ثبت المصادر والمراجع

****

أولا : **القرآن الكريم** : { **ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ** }

ثانيا :

١- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر- أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء - المحقق: أنس مهرة- الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان- الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ.

٢- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي :- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم- الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

٣- الاحتباك في الذكر الحكيم دكتور / إبراهيم صلاح الهدهد ، الناشر : مكتبة الإيمان - مكتبة الجامعة الأزهرية - بدون ت.

٤- أحكام القرآن : أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي - المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين - الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - تفسير أبي السعود - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٦- أساس البلاغة - أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري: -، تحقيق: محمد باسل عيون السود - طبعة : دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .

٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة : أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين ابن الأثير : - تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود - الناشر: دار الكتب العلمية - الأولى: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م]

٨- أسرار البلاغة في علم البيان – الشيخ عبد القاهر الجرجاني -تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر طبعة المدني القاهرة

٩- أسرار الترادف في القرآن الكريم – د/ علي اليمني دردير - طبعة : دار ابن حنظل سنة ١٩٨٥م .

١٠- أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم – د / إبراهيم صلاح الهدهد– مكتبة الإيمان للطباعة والنشر – الأولى :١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

١١- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية – د / مجيد عبد الحميد ناجي ، طبعة المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر – الأولى – ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .

١٢- أسلوب الترقي في القرآن الكريم – مواقعه وأسراره – دكتور / أحمد السيد طلحة صـ ٢١٧ بدون :ط – الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

١٣- أسماء الله الحسنى وصفاته العليا – بن قيم الجوزية : -، تحقيق : عماد زكي البارودي – طبعة : المكتبة التوفيقية -

١٤- الأسماء والصفات لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، طبعة: القاهرة : ١٣٨٥هـ

١٥- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ – دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن – دكتور / محمد أمين الخضري - مطبعة الحسين الإسلامية – الأولى :١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م.

١٦- الأعلام : خير الدين الزركلي- طبعة دار العلم للملايين، الخامسة عشر ٢٠٠٢م .

١٧- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم - : ابن عربشاه عصام الدين الحنفي - حققه: عبد الحميد هنداوي- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١٨- الأنساب للسمعاني المروزي،: تحقيق :عبد الرحمن بن يحيى ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م] -

١٩- الإيضاح في علوم البلاغة – للخطيب القزويني : - تحقيق : دكتور / محمد عبد المنعم خفاجي – طبعة : دار الجيل بيروت الثالثة ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م .

٢٠- البحر المحيط في التفسير - أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي - تحقيق: صدقي محمد جميل- ط: دار الفكر – بيروت : ١٤٢٠هـ .

٢١- البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين الزركشي- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ، الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.

٢٢- البلاغة القرآنية وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية (في كتب الأحكام) – د/ عبد الله عبد الغني سرحان – طبعة : مفكرون الدولية للنشر – الطبعة : الأولى : ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م .

٢٣- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية – دكتور / محمد محمد أبو موسى : ،طبعة مكتبة وهبة – الثالثة – ١٤٣٨هـ ، ٢٠١٧م .

٢٤- بيان المعاني: عبد القادر بن ملّا حويش السيد العاني – مطبعة الترقي- دمشق- الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٥ م[مرتب حسب ترتيب النزول].

٢٥- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان -للعلامة شرف الدين حسين بن محمد الطيبي : - تحقيق دكتور / هادي عطية مطر الهلالي- مكتبة النهضة العربية – الأولى – ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .
٢٦- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» - : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي- الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس
٢٧- التسهيل لعلوم التنزيل: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي – المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي- الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ .
٢٨- التضمين النحوي في القرآن الكريم- محمد نديم فاضل – المجلد الأول : القسم النظري - الناشر: دار الزمان، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية- الطبعة:الأولى،(١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م).
٢٩- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن- العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي: - مراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي – ط : دار طوق النجاة، بيروت – لبنان- : الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٣٠- تفسير القرآن : لأبي المظفر، منصور بن محمد السمعاني - المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم- الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية- الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م
٣١- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)- : محمد رشيد رضا - الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة النشر:١٩٩٠ م.

٣٢- تفسير القرآن العظيم- (تفسير ابن كثير) لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير- المحقق: سامي بن محمد سلامة - الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

٣٣- تفسير القرآن الكريم – التفسير القيم - لمحمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية : المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية - الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤١٠ هـ .

٣٤- تفسير المراغي - أحمد بن مصطفى المراغي - ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر: الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

٣٥- تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخى - تحقيق: عبد الله محمود شحاته- ط: دار إحياء التراث، بيروت، الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٣٦- تفسير النسفي المسمى بـ " مدارك التنزيل وحقائق التأويل"- لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي : - حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي- راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو- الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٣٧- تنوع الأفعال بين الفك والإدغام في الذكر الحكيم " دراسة بلاغية" أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد –، مكتبة الإيمان – الثانية ١٤٣٧هـ،٢٠١٥م.

٣٨- تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي،: - تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت الأولى، ٢٠٠١م .

٣٩- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن- عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي: ١٤٣، ط: وزارة الشئون الإسلامية - السعودية- الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٠- جامع البيان في تأويل القرآن- محمد بن جرير أبو جعفر الطبري : - المحقق: أحمد محمد شاكر- ط : مؤسسة الرسالة: الأولى،١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م.

٤١- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي - أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي- تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة- الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٤٢- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ـ ﷺ ـ وسننه وأيامه = صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي-المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر- الناشر: دار طوق النجاة - الأولى، ١٤٢٢هـ .

٤٣- الجدول في إعراب القرآن الكريم محمود بن عبد الرحيم صافي : الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت-: الرابعة، ١٤١٨ هـ.

٤٤- الجنى الداني في حروف المعاني : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي- تحقيق : د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل- طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان : الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٤٥- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني : لمحمد بن عرفة الدسوقي: - المحقق: عبد الحميد هنداوي- الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

٤٦- حاشية الطيبي على الكشاف- " فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب" لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي: تحقيق: إياد محمد الغوج وغيره الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم - الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

٤٧- خزانة الأدب وغاية الأرب - ابن حجة الحموي - المحقق: عصام شقيو- الناشر: دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت- : ٢٠٠٤م

٤٨- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي - تحقيق عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي، القاهرة- الرابعة ١٤١٨ هـ ،١٩٩٧ م.

٤٩- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : دكتور/ عبد العظيم إبراهيم المطعني - ، الناشر: مكتبة وهبة ،: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

٥٠- دراسات في علم المعاني – دكتور حسن مخيمر : ١٩١ بدون : ط ،: ت

٥١- دراسات لأسلوب القرآن الكريم- : محمد عبد الخالق عضيمة : تصدير: محمود محمد شاكر- ط: دار الحديث، القاهرة-: بدون.

٥٢- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب- : محمد الأمين الشنقيطي - مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٥٣- دلائل الإعجاز في علم المعاني للشيخ عبد القاهر الجرجاني - المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر- مطبعة المدني بالقاهرة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

٥٤- دلالات التراكيب – دراسة بلاغية – دكتور : محمد محمد أبو موسى- طبعة مكتبة وهبة ، الطبعة : السادسة : ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧ م .

٥٥- ديوان جميل بثينة طبعة : دار بيروت - بيروت ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م.

٥٦- ديوان السموأل ، صنعة أبي عبد الله نفطويه – تحقيق الشيخ : محمد حسن آل ياسين – مطبعة المعارف بغداد ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م .
٥٧- ديوان طَرَفَة بن العَبْد – المحقق: مهدي محمد ناصر الدين- الناشر: دار الكتب العلمية- الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
٥٨- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: تحقيق وشرح دكتور/ محمد يوسف نجم – طبعة : دار صادر – بيروت ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م .
٥٩- ديوان عمرو بن بن معد كرب – تحقيق د. هاشم الطعان . مطبعة الجمهورية ببغداد ١٩٧٠م.
٦٠- ديوان لقيط بن يعمر ، حققه وقدم له د: عبد المعيد خان ط: دار الرسالة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .
٦١- ديوان المتنبي المسمى ب [صناجة العرب] ، تقديم د/ إسماعيل العقباوي – كلية الآداب والعلوم – جامعة أبو ظبي – طبعة / دار الحرم للتراث .
٦٢- ديوان النابغة الذبياني – تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم – طبعة : دار المعارف. القاهرة.
٦٣- ذم التأويل لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن قدامة ، طبعة: القاهرة ١٣٥١ هـ
٦٤- رصف المباني في شرح حروف المعاني للإمام أحمد بن عبد النور المالقي –تحقيق : أحمد محمد الخراط – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق]
٦٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي:- المحقق: علي عبد الباري عطية- الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة: الأولى،١٤١٥هـ .

٦٦- روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار- : لمحيي الدين، ابن الخطيب قاسم الأماسي الحنفي- الناشر: دار القلم العربي، حلب-: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٦٧- زاد المسير في علم التفسير- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي - المحقق: عبد الرزاق المهدي- الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

٦٨- السنن الكبرى - أحمد بن الحسين الخراساني، أبو بكر البيهقي - المحقق: محمد عبد القادر عطا- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٦٩- سنن النسائي - المسمى بـ (المجتبى من السنن) للإمام - تحقيق / عبد الفتاح أبوغدة ، ط / مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب ، الثانية ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٧٠- سير أعلام النبلاء لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي - المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط- الناشر : مؤسسة الرسالة- الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م].

٧١- شرح اللمع في النحو " للقاسم بن محمد الضرير، تحقيق: رجب عثمان محمد – مكتبة الخانجي القاهرة، الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .

٧٢- شرح مشكل الآثار- أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي : - تحقيق: شعيب الأرنؤوط- الناشر: مؤسسة الرسالة-الأولى:١٤١٥هـ، ١٤٩٤م.

٧٣- شرح معاني الآثار لأبي جعفر أحمد بن محمد الأزدي المعروف بالطحاوي -حققه: محمد زهري النجار وغيره، ط: عالم الكتب: الأولى- ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م .

٧٤- شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد - ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري ، ط،دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنــان ــ ، الأولــى ، ١٤١٨هـــ ــ ١٩٩٨م .

٧٥- شريعة القرآن من دلائل إعجازه- محمد بن أحمد المعروف بأبي زهــرة - الناشر: دار العروبة – القاهرة - عام النشر: ١٣٨١ هـ - ١٩٦١

٧٦- الشعر والشعراء لابن قتيبة – تحقيق أحمــد محمــد شــاكر – ط : دار المعارف – الثانية ، ١٩٨٦م .

٧٧- صحيح مسلم المسمى بالمسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العــدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للإمام مسلم بن الحجاج المحقــق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

٧٨- علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبو موسى – كتبه وعلــق حواشــيه دكتور / محمود توفيق محمد سعد :– طبعة : مكتبة وهبــة -الأولــى : ١٤٤٠هـــ ، ٢٠١٩ م .

٧٩- عمدة القاري شرح صحيح البخاري أبو محمــد بــدر الــدين العينــى - الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٨٠- العين - أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيــدي البصري، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم الســامرائي- ط: دار ومكتبة الهلال.

٨١- غرائب القرآن ورغائب الفرقان - نظام الدين الحسن بــن محمــد بــن حسين القمي النيسابوري : - المحقق: الشيخ زكريا عميرات- الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ .

٨٢- فتح القدير – محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني – الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.

٨٣- الفروق اللغوية : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري –، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم – الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

٨٤- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية – نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان – الناشر: دار ركابي للنشر – الغورية، مصر ، الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م.

٨٥- القرآن المنسوب لعلي بن الحسين بن علي، أبو الحسن نور الدين جامع العلوم الأَصْفهاني الباقولي الزجاج – تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري – ودار الكتب اللبنانية – بيروت – الطبعة: الرابعة – ١٤٢٠ هـ.

٨٦- القطع والاستئناف – أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس – المحقق: كتور. عبد الرحمن المطرودي – ط: دار عالم الكتب – المملكة العربية السعودية –: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

٨٧- القواعد الحسان لتفسير القرآن عبد الرحمن آل سعدي – الناشر: مكتبة الرشد، الرياض– الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.

٨٨- كتاب السبعة في القراءات – أحمد بن موسى أبو بكر بن مجاهد البغدادي – المحقق: شوقي ضيف– ط: دار المعارف – مصر: الثانية، ١٤٠٠هـ.

٨٩- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري – تحقيق :علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط: المكتبة العنصرية بيروت، ١٤١٩هـ .

٩٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – أبو القاسم محمود بن عمرو جار الله الزمخشري: – طبعة : دار الكتاب العربي – بيروت –الثالثة – ١٤٠٧هـ .
٩١- لسان العرب – : جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقى ، – الناشر: دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ .
٩٢- لطائف الإشارات تفسير القشيري عبد الكريم بن هوازن القشيري–، المحقق: إبراهيم البسيوني – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر –الثالثة .
٩٣- اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني– المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان– : الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م
٩٤- المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي: تحقيق: د/ ف. كرنكو ط : دارالجيل ، بيروت : الأولى، ١٤١١هـ ،١٩٩١م .
٩٥- مجمع الأمثال للميداني– تحقق محمد محي الدين عبد الحميد ط : مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
٩٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – أبو محمد عبد الحق المعروف بابن عطية الأندلسي : – المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد – الناشر: دار الكتب العلمية بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ .
٩٧- المستدرك على الصحيحين – أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري– كتاب التفاسير – باب تفسير سورة النساء – تحقيق:

مصطفى عبد القادر عطا – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت –: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠.

٩٨- المسكوت عنه في التراث البلاغي – دكتور / محمد محمد أبو موسى – طبعة: مكتبة وهبة – الأولى – ١٤٣٨هـ ، ٢٠١٧م .

٩٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل– مسند عبد الله ابن مسعود– المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون –ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .

١٠٠- المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني ، وبهامشه حاشية المير سيد شريف – الناشر : المكتبة الأزهرية

١٠١- معاني القراءات لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور – الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود– المملكة العربية السعودية– الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م.

١٠٢- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي – ط: دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

١٠٣- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس تحقق: عبد السلام محمد هارون ط: دار الفكر : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

١٠٤- معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني:، تحقيق: عادل العزازي طبعة : دار الوطن للنشر، الرياض: الأولى ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م

١٠٥- مفاتيح الغيب – التفسير الكبير – أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

١٠٦- مفتاح العلوم- يوسف بن أبي بكر أبو يعقوب السكاكي - ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور - الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان - الطبعة: الثانية - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

١٠٧- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ت: صفوان عدنان الداودي- الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الأولى - ١٤١٢ هـ .

١٠٨- المقصد الأسني في شرح معاني أسماء الله الحسنى : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي - المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي - الناشر: الجفان والجابي – قبرص - الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

١٠٩- من أسرار التعبير في القرآن " صفاء الكلمة " دكتور / عبد الفتاح لاشين – طبعة : دار المريخ للنشر ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

١١٠- الملل والنحل للشهرستاني- ، تحقيق : بدران ، طبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٥ م، والتفكير الفلسفي في الإسلام للشيخ عبد الحليم محمود : ١٣٢ – ١٣٧ طبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ م .

١١١- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه- الطبعة: الثالثة.

١١٢- من بلاغة القرآن - : أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي : - الناشر: نهضه مصر – القاهرة- عام النشر: ٢٠٠٥م.

١١٣- من الحصاد القديم – دكتور/ محمد محمد أبو موسى - طبعة : مكتبة وهبة – الأولى – ١٤٣٩هـ ،٢٠١٨ م

١١٤- النحو والدلالة الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف " مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي" ، طبعة الأولى - القاهرة سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

١١٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي - الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

١١٦- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي : - المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى- الناشر: دار إحياء التراث - بيروت-: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م].

١١٧- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري - تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان- الأولى،١٤١٥هـ - ١٩٩٤ .

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١.	**ملخص**	٧٨٥٥
٢.	ABSTRACT	٧٨٥٦
٣.	**المقدمة**	٧٨٥٧
٤.	**التمهيد** :	٧٨٦٤
٥.	**المبحث الأول:** أثر السياق في اصطفاء اسم الله "الواسع" في مقام الحديث عن الأسرة وأحوالها .	٧٨٧٢
٦.	**المبحث الثاني:** أثر السياق في اصطفاء اسم الله "الواسع" في مقام الحث على الإنفاق	٧٩٠٥
٧.	**المبحث الثالث** : أثر السياق في اصطفاء اسم الله "الواسع" في مقام بيان عطاء الله	٧٩٣١
٨.	**الخاتمة**	٧٩٧٠
٩.	**ثبت المصادر والمراجع**	٧٩٧٥
١٠.	**فهرس الموضوعات**	٧٩٩٠